الفصل الثانى

اميل دوركيم
وتأسيس البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع

المحتويات

أولا : اميل دوركيم : السياق المعرفى والواقعى .

ثانيا : دوركيم وقضايا النظرية والمنهج

ثالثا : أبعاد التصور الوظيفى عند دوركيم

١ ــ قضية الضمير الجمعى كمرادف للبناء الاجتماعى

٢ ــ التوازن ، حالة تحكم اتجاهية النسق

٣ ــ قضية التغير البنائى الوظيفى

٤ ــ السلوك الانحرافى وقضية تكامل الانساق .

الفصل الثانى

اميل دوركيم

وتأسيس البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع

أولا : اميل دوركيم : السياق المعرفى والواقعى

قدم اميل دوركيم اطارا نظريا يعتبر نتاجا لأحداث واقعية واتجاهات فكرية عديدة ، حيث استطاع بهذا التصور أن يشكل الى حد كبير مسار علم اجتماع القرن العشرين (Skliar, 1970, P. 72) باعتباره موقفا نظريا الذى تحدد من خلاله أعماله الأساسية ابتداء من براعته للدكتوراه فى موضوع تقسيم العمل الاجتماعى ؛ ثم قواعد المنهج فى علم الاجتماع ؛ ودراسة الانتحار ؛ ومؤلفه عن الاشكال الاساسية للحياة الدينية — حركة تصحيح جذرية فى اطار الفكر السوسيولوجى (الخشاب ، ١٩٧٢ ، ص ٥٨٦) . ويمكننا القول بأن هذا التصور قد تضمن جانبين . الاول سلبى حيث طور موقفا نقديا لكل الاتجاهات الفكرية التى عايشها ، والثانى ايجابى حيث قدم تحديدا واضحا لمجال علم الاجتماع ، وخصائص مادته ، ومنطلقات تفسيره .

ونتيجة لذلك يمكن النظر الى تأكيد دوركيم على أن الحقيقة الاجتماعية مفسرة لذاتها (Don Martindale, 1961, P. 87) باعتباره موقفا نظريا يقطع الطريق على أية تفسيرات فردية ، نفسية او بيولوجية للحقيقة الاجتماعية (تماشيف ، ١٩٧٠ ، ص ١٧٥) . وسواء استند هذا التصور الى المثالية الموضوعية لهيجل وقوله بالفكرة المطلقة أو العقل الشامل ، أو استند الى اراء دى ميستر ودى بونال فى تأكيدهما على أسبقية الجماعة على الفرد ، باعتبارها المشكلة له ، وباعتبارها مصدر الثقافة وكل القيم السامية ، وأن الحالات الاجتماعية لا تنتج أو تتأثر أو تتعدل بواسطة رغبات الأفراد (المرجع السابق ، ص ١٨٤) .

بالاضافة الى ذلك نستطيع أن نؤكد أن تصور أميل دوركيم كان من ناحية أخرى نتاجا لواقعة الاجتماعى ، فقد عاش عصر ازدهار الثورة الصناعية ،

مع ما حمله من ظواهر شاذة ومفككة للبناء الإجتماعى . بحيث نجده قد قابل هذه الأوضاع بأوضاع التماسك البنائى التى سادت المجتمعات البدائية ، خاصة القبائل الاسترالية . وذلك من واقع المادة الاثنوجرافية التى تناولها بالمعالجة واعادة التحليل — هذا الى جانب أن دوركيم كان الزاسى المولد . وهو الاقليم موضع الحرب بين فرنسا وبروسيا ؛ بحيث ادى ذلك الى ارتفاع اهمية القومية كرباط اخلاقى فى فكرة . ومن ثم فغالبا ما نجده ينطلق نحو تصور مجتمع ليس له وجود واقعى ، مثالى او خير ، ويناقض المجتمع الذى يعيش فيه (Mackenzie, 1968, P. 185) وفى ذات الوقت يمتلك تـــكامل القبائل الاسترالية مجتمع تنتفى فيه كل مظـــاهر الانومى وتقسيـــم العمل الشـــــاذ .

يعنى ذلك أن التصور النظرى لدوركيم كان نتاجا لحوار فكرى — ايجابى أو سلبى — مع افكار عصره ؛ وايضا محاولة لتجاوز حالـــــة سوء التنظيم الاجتماعى التى عايشها . وهو ما سوف نعرض له .

اما فيما يتعلق بعلاقة دوركيم بالمثالية الهيجلية . نجد أنه يحدد موقفه صراحة من الأجنحة النقدية أو الثورية فى المثالية حينما يؤكد فى مقدمة الطبعة الأولى لقواعد المنهج فى علم الاجتماع أن (برهنته ليست ثورية على الاطلاق) . (وانه وان كان يؤمن بالحتمية الاجتماعية الا انه أقل خطورة من هؤلاء الذين يرون فى الظواهر الاجتماعية نواتج للسيطرة التى لايعوقها شىء ؛ والتى يمكن أن تقلب فى لحظة ؛ بواسطة صنعة جدلية بسيطة) . هذا الى جانب أنه عبر عن خشيته أن يوصف بكونه ماديا ؛ فاذا ما حدث ذلك (فاننا قد نطـــالب بالتشخيص المضاد) . وان التشخيص الوحيد الذى يمكن أن نوافق عليه هو التشخيص العقلانى (Harris, 1968, PP. 472) .

وتتمثل الفكرة الاولى التى أخذها دوركيم عن الفكر المثالى فى فكـــــرة العقل الجمعى . أما الثانية فتتمثل فى فكرة روح الامة أو النمط الثقافى . وفيما يتعلق بالفكرة الأولى نجد أن العقل الكونى او الفكرة المطلقة عند هيجل فى بحثه عن الـــكمال يقود تفاعلات جدلية متشعبة ؛ مع الواقـــع ليرسم حركته المستقبلة من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى مع ذاته . فى اطار ذلك نجد أن دوركيم ينقل هذه

الفكرة ، مستبدلا العقل الكونى بالوعى الجمعى (لأن الوعى الجمعى هـو الشـكل الأعلى للحياه العقلية . حيث أنه وعى مجموعات الوعى . وكون أن مكانة فوق الفرد والحوادث المحلية فانه يرى الاشياء من جوانبها الاساسية والدائمة ، تلك التى يبلورها فى أفكار تكون موضع اتصال وتواصل وفـى نفس الوقت فهو يرى من أعلى أو يرى ما هو أبعد على أى لحظة من الزمن ، أنه يضم كل الواقع المعلوم ، وذلك هو السبب فى انه وحده الذى يمكن أن يجهز العقل بالقوالب الملائمة لكل الاشياء . والتى تجعل من الممكن له أن يفكر فيها ، انه لا يخلق هذه القوالب صناعيا ، بل يجدها فى داخله ، وهو لا يفعل شيئا الا أن يصبح على وعى بهـا (Durkheim, 1915, P, 444) .

غير أن الضمير أو العقل الجمعى عند دوركيم يقترب من حيث تشكله من تصور ادموند بورك Burke لـه حيث يضم كل خبرات الماضى ، وكـل تاريخ الجماعة وتصوراتها السابقة والحاضرة فى كيان تراكمى مضيف لا تصور انكارى يرفض كل الخبرات الناقصة أو المعيبة ، وفى هذا الوضع يكمـن الاختلاف بين دوركيم هيجل .

وتعتبر فكرة الأنماط الثقافية هى الفكرة الثانية التى أخذها دوركيم عن هيجل ، الذى أكد كثيرا على روح الامة أو الدولة الالمانية . باعتبار أن لكل أمه روحا قومية تعلو فوق كل النعرات الواقعية . وفى هذا الصدد يؤكد دوركيم (أن فرنسا قد مرت منذ نشأتها خلال أشكال حضارية مختلفة للغاية ، من كونها زراعية ، الى صناعية ، حرفية ، ومع ذلك فمن الصعب أن تصدق أنها قد غيرت كيانها ، فالكائن ينبغى أن يحدد ذاته بواسطة خصائص أكثـر دواما ، أما الحالة الاقتصادية او التكنولوجية ، فهى ظواهر ليست مستقرة تماما . بل أنه من المحتمل أن توجد نفس الحضـارة الصناعية أو العلمية فى مجتمعات يختلف تكوينها الى حد كبير . فاليابان قد تستعير فى المستقبل فنوننا ، وصناعتنا ، وحتى تنظيمنا السياسى ، ومع ذلك فلن تتوقف عن الانتماء الى كيانات اجتماعية مختلفة عن فرنسا والمانيا (Harris, Op, Cit. P. 480) .

والى جانب قول مارفن هاريس أن مصدر هذه الفكرة هو المثالية الهيجلية أساسا ، فاننا نرى ان المصدر الرئيسى للتأكيد الدوركيمى على روح الأمة التى لا تتغير أبدا انما ينبثق من موقف شخصى وقومى غيور ، ذلك أن فرنسا اجتاحتها كثير من القلاقل والاضطرابات والهزائم الحربية فى عصر دوركيم ، هذا الى جانب أن مسقط رأسه المتنازع عليه ـ الالزاس ـ قد أشعل فى ذاته

جذوة القومية ، زاد منها أن الجماعة اليهودية كانت موضع رعاية فى فرنسا أيام دوركيم (Peyre, 1960, P. 3 - 31) . ومن هنا كان تأكيده على هذه الفكرة وكأنه أراد أن يقول ستظل فرنسا هى فرنسا ، والالزاس كما هى فرنسية لأن هناك روحا وخصائص لا يمكن تغييرها مهما اجتاحت التغيرات واقع فرنسا . ويعبر مارفن هاريس عن موقف مادى حينما ينتقد هذه الفكرة بقوله ان (كل شىء بها مقلوب ويقف على راسه ، ففرنسا التى هى روح جمعية فريدة قد منحت اسبقية أولى على قضية الاجراءات الامبيريقية المنطقية التى تثبت أو تصنف بها الظواهر الاجتماعية ـ الثقافية . اذ يظل أساسها الاقتصادى والتقنى فى حالة تغير ومع ذلك تبقى فرنسا كما هى وكأن جوهر فرنسا حينذاك يجب أن يسكن فى مكان آخر (Harris, Op, Cit. P. 480) .

والحق ان قول دوركيم أن روح الامة باقية مهما كانت التغيرات التكنولوجية والاقتصادية التى تقع فى اطارها يعنى اعطاء مكانة ثانوية وهامشية لمجموعة المتغيرات الاخيرة ، والتى أكدت الماركسية عليها كثيرا باعتبارها المتغيرات التى تكسب البناء الاجتماعى لمجتمع معين خصائصه الرئيسية .

ولقد كان موقفه من الاتجاه الوضعى اكثر وضوحا ، فبرغم تأكيد مارفن هاريس أن هناك خلافا بشأن تحديد موقف دوركيم ابتداء من اعتباره ماديا الى كونه صوفيا غيبيا (Harris, Op, Cit. P, 482) . وتأكيد بارسونز أن دوركيم يمثل موقفا وسطا بين المثالية والوضعية ، بحيث تجلت هذه التوسيطة فى عمله الاخير « الأشكال الرئيسية للحياة الدينية » فبينما هو يؤكد ـ وضعيا ـ انه ينبغى فهم اتجاه البشر نحو اداء فعلهم بواسطة مناهج العلم الوضعى ، نجده فى موضع آخر من ذات المؤلف يؤكد أن مقولات الزمان والمكان والسببية منبثقة أساسا عن مصادر معيارية واجتماعية . (Rex. 1961, P. 100)

والحق أن استكشاف موقف دوركيم يكشف عن التقاءات وافتراقات عديدة مع رواد الوضعية كسان سيمون وأوجست كونت . وكنقطة بدء نجد أن الوضعية وقفت موقفا متأرجحا بين المثالية الرجعية بقيادة دى بونال ودى ميستر من ناحية ، وبين المثالية النقدية الثورية بريادة هيجل من ناحية أخرى . ومن ثم فاذا كانت الأولى قد رفعت شعار النظام فان الثانية رأت التقدم شعارا مناسبا لها . ومن ثم وجدنا الوضعية ـ منعكسة فى أعمال سان سيمون أوجست كونت

ـ تحاول جمع شعارى (التقدم والنظام) معا . هذا الى جانب أن الوضعية على مايذهب جولدنر اذا كانت قد رفعت كشعارات تدعم طبقة ، فانها ساعدت على القضاء على الارستقراطية ، غير أن الطبقة الوسطى بدأت استخدامها فى قطع الطريق أمام ثورة البروليتاريا والعنف الحضرى . ونحن نتفق مع تالكوت بارسونز فى تشخيصه جملة موقف دوركيم باعتباره تطويرا ايجابيا للوضعية، حيث نجده يحافظ دائما على مفاهيم الاتفاق والتماسك ، وهى تصورات سان سيمونية وكونتية اساسا (Peyre, 1960, P, 119)

أما فيما يتعلق بعلاقته بسان سيمون نجد أنه اذا كان كارل ماركس قد طور الجانب الثورى فى سان سيمون فان دوركيم طور أفكاره المحافظة . وكامتداد لقول سان سيمون بأن الافكار والقيم الاخلاقية تحافظ على تماسك المجتمع ، فالمجتمع هو أساسا مجتمع من الافكار (Zeitlin. Op, Cit. P, 236) . نجد أن دوركيم يذهب الى أن هذه الافكار والمعايير والقيم الاخلاقية هى التى تشكل جوهر الضمير الجمعى الذى يحفظ على النسق تكامله (Rex, Op, Cit, P, 100) ويتفق دوركيم مع سان سيمون فى ادانة الرؤية الثورية ، فالشكل البنائى الذى وافق عليه هو الشكل الذى لا يلعب فيه الصراع دورا جوهريا ، وانما هو الشكل الذى يمتلك وحدة ضرورية ، تتأسس بالنظر الى تقسيم العمل ، بل انهما يقفان موقفا ايجابيا من طبقة رجال الصناعة التى أدانتها الاتجاهات الثورية بقولهما (انهم لا يصدرون الأوامر ، ولكنهم يعبرون عن طبيعة الأمور) ؛ انهم ينجزون وظائف اجتماعية مختلفة (Zeillin. Op, Cit, P, 239) . هذا الى جانب أن دوركيم قد أخذ عن سان سيمون فكرة أن المجتمع عبارة عن حقيقة مفسرة لذاتها . وهى الفكرة التى عبر عنها الاخير بقوله(ان المجتمع قبل كل شىء الة منظمة أساسا) حيث تساهم كل أجزائها بأسلوب مختلف فى حركة الكل (Ibid, P, 237) ,

واذا كان كونت قد نادى بضرورة تأسيس الفلسفة الوضعية التى يعتبر علم الاجتماع التعبير العلمى عنها ، فان دوركيم يؤكد أن على علم الاجتماع أن لا يعطى اهتماما للمذاهب الفكرية والسياسية السائدة ، وانما عليه أن يتجه الى دراسة حقائق الاجتماع وظواهره والتعبير عن جوهرها . ذلك لأن غايته علمية ، اذ هو يطلب الوصول الى القوانين التى تحكم هذه الظواهر ، أما الأولى فغايتها اصلاحية (دوركيم ، ١٩٥٠ . ص ٦٤) . ثم يحاول أن يحدد مادة هذا

العلم بأن يصوغ لها تشيؤا وواقعية ، لكى يستطيع الباحث العلمى تناولها بيسر ؛ فالحقائق الاجتماعية لديه تتكون من أساليب السلوك والتفكير والشعور وان من خصائصها أنها خارجة عن الوجود الفردى وسابقه عليه ولها قهر والزام ، ثم ان لها وجودها الموضوعى . (De-Grange, 1953, P, 205) . (Martindale Op, Cit. P. 90)

غير انه برغم هذا الاتفاق العام مع الوضعية ، فانه كان لدوركيم معها خلاف حول قضيتين أساسيتين . أولاهما تقسيم العمل الاجتماعى . حيث يرى كونت أن التخصص يعتبر تهديدا مدمرا وموجها لضرب التقدم المنظم، فى حين يرى دوركيم أن تقسيم العمل يقود الى شكل جديد وارقى للتماسك الاجتماعى وهو مجتمع التضامن العضوى الذى يحل محل التضامن الآلى الذى يعتمد على تماثل الوعى بين الافراد بينما يعتمد الاول على تباين وتخصص وظائفهم . (Harris. Op, Cit, P, 466)

ويشكل الموقف من النزعة التطورية قضية الخلاف الثانية بين دوركيم والوضعية . فهو أولا يرفض تصور الماضى على مراحل كما فعل كونت ، مثلما يرفض التصور المرحلى للمستقبل كما فعل ماركس . ويرى أن تاريخ المجتمعات الانسانية يمكن اختزاله الى نموذجين هما مجتمع التضامن الآلى ومجتمع التضامن العضوى وهذا يطرح أساسا لقيام المنهج المقارن كمنهج أساسى فى علم الاجتماع .

أما فيما يتعلق بعلاقة دوركيم بالفكر النفعى ، فنجد أن معظم وثائقه الأساسية — دراسة الانتحار ، تقسيم العمل الاجتماعى — كانت موجهة أساسا كحوار مع الاتجاه النفعى (Harris, Op, Cit, P, 474) . غير أننا نلاحظ أن نقاط الخلاف تفوق نقاط الاتفاق فيما يتعلق بحوار دوركيم مع الفكر النفعى . وتعتبر قضية الأصل الفردى للمجتمع أول قضايا الخلاف . اذ يرى سبنسر والنفعية انه يمكن ارجاع تكوين المجتمع الى مكونين . الاول : الشروط الخارجية أو الظروف البيئية الكونية ، اما الثانى فيتمثل فى الظروف العضوية والنفسية أو الفردية مع التأكيد على أن فاعلية المكون الأول تأتى من خلال الثانى (دوركيم ، ١٩٥٠ ؛ ص ١٦٣) . هذا بالاضافة الى قول النفعية بأن التعاون هو الحالة الاساسية للمجتمع (Durkheim, 1966, P. 48) وتتمثل قضية الحوار الثالثة فى رفض دوركيم القول بأن المبدأ المسير للحياة الاجتماعية هو مبدأ اللذة والألم ، سواء ظل على المستوى الفردى أم تصاعد

ليتخذ بعدا اجتماعيا ، هذا الى جانب اعتبار سبنسر التعاقد كأساس لشبكة العلاقات الاجتماعية .ومن ثم للمجتمع بكامله . وبذلك نجده يرفض وجود الحكومة طالما أن كل فرد فى التعاقد يقوم بالتزاماته الرئيسية . أو يقصر وظائفها على الحـــرب والدفـــاع والحراســـــة والضبط السلبى (Ibid, PP, 200 - 201) . فالمجتمع الصناعى يعتمد على التخصص الذى يحقق الوسائل الأرخص والأكثر كفاءة لانتاج السلع الاقتصادية وتحقيق الوفر فيها ؛ وهى السلع التى يعتمـــد عليها وجود الانسان (Harris, Op, Cit, P, 474) ,

ولمواجهة النفعية نجد أن دوركيم يتبنى نزعة مضادة للفردية التى يقول بها سبنسر والنفعية . هذه النزعة تعرف بالنزعة السوسيولوجية Sociologism التى أصبحت فيما بعد تيارا منهجيا هاما لعب دورا (Sklair, Op, Cit, P, 74) , وهى النزعة التى تؤكد تفوق الجماعة أو المجتمع على الفرد لآفاق لانهائية من حيث الزمان والمكان . فهو يفرض عليه ضروبا من السلوك ليس عليه الا أن يطرح عليها نوعا من القداسة والاحترام (دوركيم . ١٩٥٠ . ص ١٦٧) . وبذلك نجد أن دوركيم يمنح المجتمع تجسيدا واقعيا مطلقا أقوى من الفـــرد (تيماشيف؛مرجع سابق ،ص١٧٥) . فهذا المجتمع له حاجات ؛ وما البشر سوى وسائل لاشباع هذه الحاجات . بذلك تصبح أفعالنا وظائف لاشباع حاجات اجتماعية . ومن ثم يصبح الاختيار الفردى فى أساسه فرضا اجتماعيا . اننا حينما نتقرب الى الله ، أو نزرع أرضنا قمحا ، أو نتزوج من فتاة جميلة ، أو ندفع الضرائب التى علينا ؛ فاننا بذلك نطيع حقيقة ما ، لأنها أكبر واقوى من ذواتنا وأنانيتنـــا الفردية (Durkheim. 1951. P. 355) .وهذه الحقيقة هى المجتمع

ثم يواجه دوركيم الرؤية النفعية باعتبار أن المجتمع يتكون من علاقات بين الأفراد . ومن ثم فالمجتمع فى أساسه تجمع اقتصادى (Durkheim, 1966, P, 288) يتشـــكل من أفراد ليسوا وســـائل طوعه وانمـــا هم أفراد ذوو وجود متعاون أساسا . على ذلك يرد دوركيم بأن العلاقة الفردية لاتكفى لبناء المجتمع ، لانه علاقة مصلحة ، وأينما كانت المصلحة كانت العلاقة ، فاليوم قد أكون عدوا لك وغدا قد أكون صديقك.وبذلك تنتج علاقات ذات طبيعة انتقالية أو ترابطات وقتية لايمكن أن تشكل أساسا للتضامن العضوى ، ذلك البناء الذى يقوم أساسا على تساند وتساوق وظائف الافراد (Ibid. P. 204) .

ويخلص دوركيم من ذلك الى رفض رد الظاهرة المجتمعية الى ظواهر فردية مؤكدا أن الأولى هى التى تخلق الثانية ، ثم يرد على سبنسر حينما يقول ان عالم الاجتماع مثل عالم الرياضة الذى من شكل عدد من الكرات يستنتج الشكل التى تتوازن به . فيؤكد ان المقارنة ليست دقيقة ولاتلائم الحقائق الاجماعية . اذ أن الكل هو الذى يحدد شكل الأجزاء فى عالم الاجتماع . فالمجتمع يرسى ركائزه فى ضمائر الأفراد ، دون أن يستمد هذه الركائز من ضمائر الأفراد , (Ibid, P, 350)

ويرفض دوركيم ما تذهب اليه النفعية حيث تأسيسها للمجتمع على أساس من العلاقات التعاقدية فيؤكد أنه يشك تماما فى امكان ان يكون هناك استقرار على أساس هذا النوع من العلاقات (Smelser, 1968, P, 250) بل أننا اذا سلمنا بوجود العنصر التعاقدى كرابطة تصوغ التكامل ، فهناك عناصر لا تعاقدية تصوغ التكامل (Rex, Op, Cit, P, 62) . هذا الى جانب أن هناك علاقات لا تعاقدية تنشأ الى جانب هذه العلاقات التعاقدية Durkheim. (1961. Chap, 2) . ثم يؤكد أن المجتمع يطرح روحه على العلاقات التعاقدية من أربعة زوايا . الاولى . أن المجتمع يحدد ما هو صالح وما هو محرم ، فالمجتمع لايبيح التعاقد على صفقة مخدرات ، والثانية ، أن المجتمع يحدد أسلوب ومشروعية التعاقد ، بمعنى أن لا يكون هناك قهراو ضغط لانجاز هذا التعاقد وأن يكون قبوله وتنفيذه فى نطاق القدرة الشخصية والثالثة ، أنه يوجب توفر المسئولية للدخول فى هذا التعاقد ، بمعنى أن يكون عاقلا وفى سن معينة مثلا ، والرابعة ، أن المجتمع يتدخل فى تحديد درجات الوفاء بالالتزامات التعاقدية ، وكذا شروط وأنواع التعاقدات حتى بالنسبة لنفس الشىء المتعاقد عليه (Parsons. (1937. PP, 118 - 153) . ثم يؤكد أن العلاقة التعاقدية تشتمل على مضمون التعاقد والتزامات وأطراف التعاقد وهذه كلها املاءات طرحها العقل الجمعى .

أما فيما يتعلق بادعاء النفعية بازدياد السعادة باطراد التخصص والانتاجية (Harris, Op, Cit, P, 475) . ومن ثم تصبح وظيفة تقسيم العمل زيادة الانتاج لتحقيق السعادة . هنا نجد أن دوركيم يرفض أية علاقه تصل بين تقسيم العمل والسعادة . ثم هو يذهب الى أن زيادة الانتاج ليس سبب تقسيم العمل ، وانما هو نتيجة له . فنجد الاجتماعيين على خلاف رجال الاقتصاد يرى

الانتاج مجرد احدى نتائج تقسيم العمل لا سببا (Durkheim. 1966. P. 234) .
ويؤكد دوركيم أن مجتمع تقسيم العمل خلق من الظروف ما جعل الحياة صعبة بالنسبة للانسان أيضا حيث هو المجتمع الذى تسوده حالة الانومى . وهو المجتمع الذى يسجن الانسان فى اطار وظيفة محددة . ومن هنا فالانتحار فى مجتمعات التضامن العضوى أعلى منه فى مجتمعات التضامن الآلى . اذ ترفع حالة عدم الاستقرار معدلات الانتحار ، ومن ثم يعنى ذلك تبديد السعادة (Ibid, P, 241) ,

وبرغم ذلك تشكل المماثلة العضوية اطار التقاء بين دوركيم وسبنسر كأحد رواد المذهب النفعى ، وان أفرغها الاول من محتواها البيولوجى مضمنا اياها محتوى اجتماعيا . حقيقة ان دوركيم يرفض أن يكون الكل ناتجا عن أجزائه كما يذهب سبنسر ، ويرى على العكس أن الكل يخلق أجزاءه على غراره وطبيعته انه أعلى فوق الأجزاء ، له حاجات وعلى هذه الأجزاء اشباع هذه الحاجات .

يبقى امتياز واضح كان لسبنسر على دوركيم ، وهو تمكن سبنسر من صياغة مبدأ سوسيولوجى هام وهو أن الصراع الذى يمارسه النسق مع نسق خارجى يؤدى الى التكامل والتماسك الداخلى ، تلك الحالة التى يصورها لنا فى مجتمعه الحربى . وهو المبدأ الذى نجده بعد ذلك عند كل من زيمل ، وكوزر اللذان أسندا الى الصراع وظيفة صياغة التكامل ، اذ نجد دوركيم يطرح بدلا منها فاعلية القوانين والعادات والانماط المعيارية الاخرى . (Smelser. Op, Cit, P, 251)

ويواجه دوركيم الماركسية حول ثلاثة قضايا أساسية . هى قضية الضمير الجمعى ، وانفصال الوعى الطبقى ، وتقسيم العمل الاجتماعى

وفيما يتعلق بالضمير الجمعى الذى يتكون من مجموعة المثل والافكار المشتركة فبينما نجد أن الماركسية تراه مجرد انعكاس للبناء التحتى الذى تشكل أساليب الانتاج جوهره الرئيسى ، نجد أن دوركيم يؤكد أن المثل التى تشكل جوهر الضمير الجمعى ليست انعكاسا معاصرا فقط ولكنها ذات بعد زمانى وتاريخى يجعلها أكبر مما هو فى الحاضر ، ويمنحها قدرة على تشكيل هذا الحاضر وفقا لقوالبها (Pierce, 1960, P, 165) .

وبالنسبة لقضية الوعى يذهب دوركيم الى القول بأن ماركس يرى

أن لكل طبقة وعيها ، ومن هنا تظهر الحرب الطبقية باعتبارها العلاقة الاجتماعية المشتركة بين الطبقات التى لم تستطيع تحقيق نطاق مشترك (Harris, Op, Cit, P, 476) . فى مواجهة ذلك يرى دوركيم فى الضمير الجمعى نتاجا معاصرا مشتركا لكافة شرائح المجتمع الموجودة الى جانب مجتمع الماضى وذلك بعد المرور بمرحلة التفاعل بحيث يشكل هذا الضمير ؛ تضامنا آليا اذا كانت أجزاؤه متماثلة ؛ وتضامنا عضويا اذا كانت أجزاؤه متباينة .

وعلى حين يرى كارل ماركس أن تقسيم العمل عملية بين الطبقات حيث طبقة البرجوازية حرفتها الايديولوجيا التى تؤسسها لتخدع بها طبقة أخرى هى طبقة البروليتاريا ؛ فأننا نجد أن الطبقة البرجوازية هى طبقة عالة على طبقة البروليتاريا المنتجة . وحيث الأولى تعيش لتتغذى على فائض قيمة عمل طبقة البروليتاريا (Zeitlin, Op, Cit, P, 101) , . وبذلك يصور كارل ماركس تقسيم العمل على النحو الذى يمهد لقيام الصراع الطبقى ؛ على خلاف ذلك يرى دوركيم فى تقسيم العمل نوعا من التخصص ؛ الذى تتساند فى اطاره الوظائف وتتآزر ، فلأنها متباينة ؛ فأن الوحدة بينها تتأكد (Ibid, PP, 244 - 245) , ومن هنا عرف هذا النوع من التضامن بنمط التضامن العضوى .

والى جانبا ذلك فبينما يرى كارل ماركس فى تقسيم العمل تهيئة لقيام الصراع الذى ينفى البناء الذى يسوده تقسيم العمل المهنى على العكس من ذلك يرى دوركيم فى تقسيم العمل ميكانيزما لحل الصراع الذى ساد التضامن الآلى نتيجة للرغبات المتماثلة فهو يحمل فى ثناياه الرغبة فى التعاون المتبادل ؛ وبالتالى فهو يحل التوازن والاستقرار اللازمين لحياة المجتمع واللذان يمثلان الوضع الطبيعى للحياة الاجتماعية (أحمد أبو زيد . ص ٤٤٢ ، ٤٦٧) فهو يؤدى الى درجة عالية من التضامن وليس الى الصراع . ويحاول دوركيم أن يرى تقسيم العمل من الداخل فيؤكد أنه اذا تمرد العمال ؛ فأن ذلك لجعل صاحب العمل يقبل مسألة ما ، وهم يجاهدون لتحقيقها ، اذ لا تحتوى أماكن العمل على عناصر متضادة دائما (Durkheim. 1966. P. 355) . وأن التخصص لا يولد التوتر كما يذهب ماركس لانه يسجن العمال فى مجالات ضيقة لا يستطيعون الهرب منها طيلة حياتهم (Zeitlin, Op, Cit, PP, 101 - 102) ,

هم على ما يذهب دوركيم يعرفون انهم والآخرين يعملون فى سبيل هدف مشترك ، ويخدمون غاية ما ، ومع ذلك لم يدرك الاقتصاديون ذلك ، ولم يروا فى تقسيم العمل الا وسيلة (Durkheim, 1966, P, 373) .
هذا الى جانب أنه اذا كان تقسيم العمل يؤدى الى التفتت فان الضمير الجمعى بطرح الدولة كوسيلة هدفها الرئيسى الحفاظ على بقاء وحدة اخلاقية بين مختلف المهن (Ibid, P, 361) .

ويؤكد دوركيم أنه من الممكن أن يتخلق فى المجتمع ما يمكن ان نسميه بتقسيم العمل الشاذ ، الذى قد يتسم بالطبيعة الصراعية حيث ينعزل البشر عن بعضهم البعض ، وتسود حالات الصراع والسيطرة والاستغلال (Zeithlin, Op, Cit, P, 247) , . ويرجع دوركيم ذلك الى ثلاثة أسباب . الاول التغيرات السريعة التى قد تنتاب البناء الاجتماعى فى جانبه الاقتصادى ، مما يؤدى الى خلق علاقة جديدة بين العاملوصاحبالعمل. (Durkheim, 1966, P, 370) . حيث تسود حالة الأنومى التى يمكن مواجهتها باعادة النظيم الاجتماعى ، وتحقيق الشكل الامثل لتقسيم العمل (Zeitlin. Op, Cit, P, 248) . أما السبب الثانى فيذهب الى أن تقسيم العمل يكون شاذا اذا لم تعبر الاختلافات الاجتماعية عن اختلافات طبيعية , (Ibid, P, 377)

ولمواجهة ذلك فعلينا ان نعيد توزيع العمل وفقا لتوزيع المواهب والاستعدادات الطبيعية (Zeitlin, Op. Cit, P, 249) أما السبب الثالثفيرجع الى غياب التنظيمات الاجتماعية التى تتولى الحفاظ على استقرار المجتمع ، تتخلق الجماعات المهنية التى تضم العمال مع اصحاب الأعمال فى تجمع واحد، يعتبر كيانا يعلو على كل منهم ، ويلزم الاقوياء أن يتلطفوا فى استخدام قوتهم ، ويمنع الضعفاء من الاكثار من احتجاجاتهم وتمرداتهم ، انه يدعو كلا الجانبين الى حالة من الواجبات والالتزامات المتبادلة بغية تحقيق المصلحة العامة .

حيث تخفف هذه المؤسسات من تناقضات العواطف والمشاعر ، وتؤسس نظاما أخلاقيا جديدا بدونه يصبح التقدم العلمى والاقتصادى فى العالم مهيئا لانتاج آثار مرضية سيئة . Durkheim, 1951, P, 383

ثم يتحرك نحو طرح شكل آخر يتمثل فى نوع من اليوتوبيا العالمية اذ تمثل ذلك فى المناداة بمجتمع عالمى تسود فيه علاقات التضامن وتمتنع فيه

الحروب والشرور بين البشر ، ويعتبر هذا المجتمع العالمى جماعة أكبر تضم بداخلها جماعات أصغر مثل المؤسسات النقابية داخل المجتمع . ان هـذا المجتمع العالمى بعيدا عن الرؤية ، الا اننا نراه قريبا متمثلا فى ذلك التقارب بين الأقطار الأوربية Durkheim, 1966, PP, 405 - 406 والواقع ان دوركيم يفرض لهذا الشكل المجتمعى العالمى ضميرا جمعيا ملائما ولسوف نـرى ترديدا لذلك فى التصور النسقى الشامل الذى صاغـه تالكوت بارسـونز .

ثانيا : النظرية الدوركيمية : قضاياها النظرية والمنهجية :

آثرنا فى عرضنا لاميل دوركيم ونموذجه الفكرى ، ان نقسمه الى قسمين . الأول يحتوى على طبيعة وتفاصيل حواره الفكرى مع التيارات الفكرية السابقة عليه . حيث ولد هذا الحوار — سواء فى جانبه النقدى أو الاضافى — أفكارا تماسكت فصاغت نموذجه الفكرى الذى هو موضوع القسم الثانى ، ومـن هنا فقد يبدو أن القسم الثانى انما هو تجميعات أفقية من خطوط رأسيـة للموضوعـات أو القضايا الاساسية — منهجية كانت أو نظرية — التى رأى فيها أميل دوركيم انها يجب أن تشكل نطاق ومعطيات علم الاجتماع .

وفى أثناء عرضنا للقسم الأول انتقدنا بعض منظرى علم الاجتمـاع ، لمحاولتهم التمسك أو التأكيد على قضايا جانبية باعتبار أنها تمثل الدافـع الى دراسة ، أو فكرة معينة . كأن يحاول البعض مثلا كما أشرنا ، أن يؤكد ان دراسة الانتحار كانت برهنة لاثبات زيف المذهب النفعى الفردى . أو أن تقسيم العمل فى المجتمع ، انما هو رد على البهتان الكونتى القائل بأن تقسـيم العمل يعد أحد عوامل التفكك والتشتت الاجتماعى . وذلك لأن محـاولة تجميع القضايا النظرية والمنهجية لنموذج اميل دوركيم الفكرى سـوف يثبت أن هذه القضايا كانت جانبية دائما ، واننا لا يجب أن نستند عليهـا فى تاريخ ميلاد أو تقويم أعمال معينة . لقـد أراد دوركيم أن يحـدد نطاق علم الاجتماع فقال أنها دراسة الحقائق الاجتماعية ، ثم حاول طوال دراسته جميعا أن يثبت كيفية وامكانية تناول هذه المعطيات بالدراسة ، وبذلك خلق أميل دوركيم تصورا جديدا فى علم الاجتماع . هذا التصور تعد تسميتـه بالنزعة السوسيولوجية أكثر التسميات ملائمة .

بيد أننا نفضل القضايا النظرية أو المنهجية فى أثنـاء عرضنـا

لنوذجه الفكرى ، شفيعنا فى ذلك ، أننا نعالج الاسهام النظـــرى لاميلّ دوركيم فى صياغة القضايا الأساسية للاتجاه الوظيفى فى عـــلم الاجتمـــاع ، حيث أننا من الصعب أن نؤكد أن أميلّ دوركيم كان بنائيا وظيفيا فقط ، والا ظلمناه وظلمنا البنائية الوظيفية معه ، لقد الهم النموذج الذى صاغه أميلّ دوركيم عديدا من الاطر التصورية الموجودة فى نظرية علم الاجتماع المعاصرة ومنّ هنا فان اسهاماته غير الوظيفية سوف لاتكون موضع عرض فى الصفحات التالية.

فاذا تأكد لنا أن بناء النظرية يحتوى على مستويين ، المستوى الأولّ هو المستوى المنهجى ، وهو الذى يشكل طبيعة مدخل النظرية لفهم الواقع ، أما الثانى فهو المستوى العينى الذىّ تقيم النظرية فى اطاره تصورا لطبيعة هذا الواقع . ذلك يعنى أن هدفنا من هذه الفقرة هو استعراض موجز للغاية لطبيعة نظرية أميل دوركيم السوسيولوجية ، مع اعطاء نوع من التوضيح لبعض الملاحظات والوصايا المنهجية التى أوصى بها دوركيم الباحث فى علم الاجتماع، فقد انتهت جهود كل من كونت وسبنسر دون أن تسفرعن تحديد واضح لمادة ومنهج علم الاجتماع (تيماشيف ، مرجع سابق،ص ١٨٩)وكانت هذه القضية هى المطلب الذى كان على أميل دوركيم أن ينجزه .

فبالنسبة لمادة علم الاجتماع نجده لم ير أن الفرد هو أصل الكل الاجتماعى كما فعل سبنسر ، وبذلك رفض أى استعانة بالتفسيرات النفسية والحيوية فى تفسيره لظاهرة علم الاجتماع ، ذلك لأن هذه الظاهرة تختلف فى طبيعتها عن كافة أنواع هذه الظواهر (الخشاب ، مرجع سابق،ص ٥٩٣)وهى مستقلة عنها . الا أنه لم يقف عند حد الرفض بل انتقل الى موقف مضاد تماما ، اذ قالّ أن الظاهرة الاجتماعية قد تكون نتاجا لعديد من الظواهر الفردية والظواهر الأخرى ، الا أنها بمرورها خلال عملية التفاعل الاجتماعى تكتسب طبيعـــة ووجودا جديدا ، وهى سابقة على ذوات الأفراد ومن ثم فهى دائما فوقهم وخارجة عنهم تشكلهم وفقا لحاجتها ، ثم ينتهى الى أن هناك كيانا كليـــا هو الضمير الجمعى الذى تعد الظواهر والحقائق وكافة ما فى حياة الجماعة الواقعية ، بل والأشخاص أنفسهم مجرد تجليات لهذا الضمير الجمعى . وبذلك ينتهى الى الموقف الذى يؤكد أن الجماعة هى التى تصنع الفرد وليس الأفراد هم الذين يصنعون الجماعة .

واتساقا مع هذا التصور نجده ينجذب الى موقف فكرى آخرّ يعالج

فيه قضية التغير كعلاقة بنائية بين الفرد والواقع الموضـــوعى . فالواقـــع بما فيه من حقائق اجتماعية قد يشتمل على بعض السلبيات التى يبيح المشروع الماركسى للفرد أن يتقدم لتغييره وذلك بهدف خلق واقع موضوعى جديـــد يتلاءم وطبيعته الذاتية ؛ أما دوركيم فيقف على الطرف المقابل من هذا الموقف. فنحن قد أكدنا أن الضمير الجمعى الذى أصبح وجودا موضوعيا يتخذ مـــن الافراد أدوات لتحقيق حاجاته ، وهو يشكل الافراد وفقا لطبيعته وان كل ما هو واقعى انما هو تجلى لهذا الضمير الجمعى . فكيف اذا يكون لما هو ناتـــج وثانوى القدرة على تغيير ما هو اساسى واصيل . ومن هنا فلقد ركز دائما على قوة القهر الاتية من الخارج على الافراد ولم يركز على تغيير النسق. (Zeitlin, 1969, P. 298)

فاذا كان الوجود الجمعى له وجوده الموضوعى المنفصل ، وايضـــا الأقوى والمحتوى للوجود الفردى ، فلا شـــك أن له حاجـــاته الخاصـــة والمنفصلة عن الحاجات الفردية ؛ وايضا لديه أساليبه الخاصة فى اشـــباع هذه الحاجات ، وهو كما يؤكد البرت بيرس أن المجتمع أو الكل هو مصدر الحاجات التى يعين لها الافراد أو الظواهر كوسائل من وظيفتها الاساسية اشباع هذه الحاجات (Pierce, 1960 PP. 155 - 156) وبذلك تكون الحاجات مطلبا يطرحه الكل على فردياته التى يكون عليها القيام بوظيفة اشباع هذه الحاجات . وبذلك يضع أميل دوركيم أساسا بنائيا وظيفيا هاما مضمونه أن كافة المناشط والأفعال الاجتماعية التى تقع فى النسق انما ترجع اليه أساسا . فهى اما أن تعبر عن حاجة أو تقوم بوظيفة اشباع هذه الحاجة . ويظل مؤكدا أن هذه الحاجات والوظائف على المستوى الاجتماعى البنائى أساسا وليست على المستوى الفردى ، وهو فى ذلك يفضل كثيرا من البنائيين الوظيفيين من أمثال برنسلاو مالينوفيسكى الذى راى فى كافة الافعال والجهود الاجتماعية مسالك لاشباع حاجات فسيولوجية وبذلك تقهقر بالنظرية السوسيولوجية الى موقف سبنسرى أساسا . ويمكننا هذا من فهم رفض أميل دوركيم للغائية التى تتجه اليها الظاهرة الاجتماعية وتفضيله للوظيفة الاجتماعية التى تؤديها الظاهرة (Pierce, 1969, PP. 164 - 165) بل أن ذلك يجعل فى مقدورنا أن نتصور ونفهم وجود ظواهر مثل الانتحار والجريمة ؛ على أنها تؤدى وظائف تشبع حاجات بنائية تعلو على المستوى الفردى وتتعلق بالمستوى الاجتماعى البنائى (تيماشيف ، ص ص ١٩١ — ١٩٣) .

وانطلاقا من هذا التصور للوجود الجمعى الذى يتحمل مسئولية تحقيق التوازن وانجاز التغير وفقا لحاجات بنائية تتعلق به يطرح دوركيم بعض الوصايا المنهجية التى يجب أن يلتزم بمراعاتها الباحث فى علم الاجتماع . وفى هذا الصدد يتحدد الجهد الدوركيمى فى موضعين : الأول هو تحديد المادة أو المعطيات التى تشكل مجال دراسة العلم ، والثانى : يتمثل فى ابتكار أفضل الوسائل المنهجية التى يستخدمها الباحث فى الدراسة ، وفى هذا الصدد نلمح أن الاطار التصورى عند دوركيم يسهم الى حد كبير فى تحديد هاتين المسألتين ، وتبدو فاعلية هذا الاطار التصورى فى تناول المادة العلمية — التى أمكن جمعها باستخدام هذه الوسائل المنهجية — بالتفسير .

ومن الوصايا المنهجية التى يقدمها للباحث، انه يجب أن يعامل الظواهر الاجتماعية كأشياء بمعنى أنه يمكن اخضاعها للتجربة ، وان على الباحث أن يتخلص من كل أفكار ذاتية عن الظاهرة باعتبار أنها ظاهرة اجتماعية أساسا . وأن عليه أن يدخل لدراسة الظاهرة من الخارج ، أى على أنها خارجة عنه وكما توجد فى المجتمع وليس على أنها متجسدة فى ذاته ، وانه يجب أن يتخذ من الاجراءات ما يحدد تعريفيا الظاهرة موضع الدراسة حتى يمكن تحديد نطاق الدراسة (الخشاب ، مرجع سابق ، ص ص ٣١٠—٣١١) ومن الواضح اننا نلاحظ اتصالا وثيقا بين هذه الوصايا والصفات الأساسية للظاهرة الاجتماعية كما عينها دوركيم ، فهى تتسم بالخارجية ، والعمومية ، وانها ذات قهر والزام ، وانها ككل الأشياء لها تجسد موضوعى متشيء وذات وظيفة فى بناء المجتمع .

فاذا ما حدد الباحث الظاهرة نجده يرسم الخطوات المنهجية لدراستها ، فيؤكد على ضرورة دراسة نشأة الظاهرة ، وعناصرها وطبيعتها ، ثم تطورها والأشكال التى اتخذتها فى المجتمعات المختلفة ، ثم ترابطها مع ظواهر البناء الأخرى ، ثم الكشف عن الوظيفة التى تؤديها فى البناء القائم والتى كانت تؤديها فى أطوارها السابقة ، وبذلك يتمكن من الوصول الى القوانين التى تحكم تغير واستقرار الظاهرة . ذلك لأن القانون هو غاية وهدف البحث العلمى (الخشاب ، مرجع سابق ص ، ٣١٢)

وتنبثق هذه الوصايا والخطوط المنهجية التى طالب دوركيم الباحث بترسمها فى دراسته للظواهر الاجتماعية من موقف وضعى يؤمن بأنه قد يكون

هناك انفصال واضح بين العلوم الطبيعية والاجتماعية الا انه تظل هناك ضرورة استعارة منهج العلوم الطبيعية (Don Martindale, Op, cit., P, 90) واستخدامه فى دراسة الأشياء أو المعطيات الاجتماعية ، ثم نجده يركز على الطرق المنهجية التى يتبعها الباحث فى تناوله للظاهرة بالدراسة . حيث يعنى بهذه الطرق ضرورة ملاحظة الظاهرة كما تقع فى الواقع ، ثم المعالجة الاحصائية للظاهرة ، وامكانية استخدام المنهج المقارن وسنركز على الاخيرين لانه تناولهما فى أبحاثه .

وبالنسبة لأسلوب التناول الاحصائى للظاهرة ، يؤكد دوركيم أهمية ودقة هذا الأسلوب فى التعبير عن الظاهرة سوسيولوجيا ، فهو يؤكد أن المجتمع تنتابه تيارات اجتماعية معينة ، كتيار نحو الزواج أو الامتناع عنه ، أو الانتحار أو الجريمة أو تنظيم النسل ، هذه التيارات تعبر — وفقا لتصوره — عن حاجة بنائية يؤدى هذا التيار وظيفة اشباعها ، لكنها فى مفرداتها تعتبر خاصة ترجع الى أسباب فردية . هنا يؤكد دوركيم أن الاحصاء هو الذى يمدنا بوسيلة نفصل بها هذه الظاهرة عن تجسداتها الفردية . ان حجم أو نسبة ظاهرة ما ينتج من ناتج قسمة المجموع الكلى السنوى لحالات الظاهرة — الزواج أو الانتحار — فى المتوسط على عدد الرجال أو النساء الذين يشكلون وعاء لهذه الظاهرة ، ولما كان هذا العدد المجمع يضم كافة الحالات الخاصة دون تفرقة ، فان الظروف الخاصة التى يجد فيها الأفراد (المتزوجون أو المنتحرون) أنفسهم تتعارض فيما بينها ، ويمحو بعضها تأثير البعض الآخر . وبذلك تلغى الأسباب الفردية لان ليست السبب الحقيقى فى وجود الظاهرة . وتصبح الظاهرة بعد ذلك ذات علاقة أساسا بكيان ونفسية الجماعة .

أما الاسلوب الثانى الذى استخدمه فهو المنهج المقارن ، ولقد توصل الى هذا المنهج الذى كان يماثله بالتجربة غير المباشرة من خلال نقده الذى وجهه الى التطوريين من أمثال كونت وسبنسر وبذلك مهدت التطورية لقيام المنهج المقارن فى علم الاجتماع (Gouldner, 1971, P. 117 هذا بالاضافة الى تصوره الكلى للمجتمع على انه مجموعة من الظواهر المترابطة والمتبادلة التأثير ، بحيث أن أى تغير فى احداها يوجب نفس القدر من التغير فى الاخرى ، وهى ما تعرف بطريقة التغير النسبى أو التلازم فى التغير التى استعارها دوركيم من

جون استيوارت ملّ (الخشاب ، ص ٥٩٥) ، هذا الى جانب طرق الترابط الاخرى كالتعاقب والاختلاف فى الوجود . والحقيقة لقد استخدم دوركيم المنهج المقارن بمقارنته لنمط المجتمع العضوى الذى كان يمثل المجتمع الصناعى الحديث والاوربى بصفة خاصة ، بمجتمع التضامن الآلى الذى كان يضم كافة الانماط الاجتماعية الكائنة فى التاريخ والسابقة على هذا النمط العضوى . فلقد عقد مقارنة كما يؤكد جولدنر بين الآن وحينئذ ، ساعد على اجرائها كما صاغها توفر بيانات اثنوجرافية جمعهـا أوربيـون عن المجتمعـات الافريقية البـدائية (Gouldner, 1971, P, 120) ويـؤكد دوركيم انـه يمـكن اجراء المقارنة باحدى صور ثلاث ، أولاها مقارنة بين النظم والظواهر داخل المجتمع الواحد. وثانيها مقارنة لظاهرة ما بين نماذج تاريخية متعدده وثالثها مقارنة بين نماذج مجتمعية فى نطاق زمانى واحد (الخشاب ، مرجع سابق ص ص٣١٣ــ٣١٤). وهذا بالاضافة الى تأكيد دوركيم الدائم على ضرورة التعرف على ترابطات الظواهر والعلاقات الآلية أو السببية بينها ، ثم الوظيفة التى تؤديها داخل هذا النمط الاجتماعى ، ذلك لكى تكون برهنتنا برهنة علمية ، اما ان نجمع الادلة والشـواهد من خلال التاريخ لتأكيد علمية فرض معين فهذه ليسـت برهنة علمية على الاطلاق . (Durkheim, 1966, P, 220)

واخيرا ، هل نقول مع تالكوت بارسونز عن دوركيم انه كان منظـرا ممتازا فى معالجته لقضية التكامل الاجتماعى (Parsons, 1960, P, 150) ام نتفق مع تيماشيف حينما يؤكد أن نظريته قد تميزت بنوع كبير من الاتساق، وانها اثرت على اجيال كثيرة من بعده فى فرنسا وامريكا لانها قدمت اجابات واضحة ومحددة للقضايا الرئيسية فى النظرية السوسيولوجية (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٩٤) ام أن نؤكد مع البرت بيرس فى قوله أن دوركيم قد تفوق على كل الوظيفيين من بعده خاصة فى معالجته لقضية التغير الاجتماعى الحقيقة أن كل ذلـك صـادق وحقيقـى ، Pierce, Op, cit, P, 159 ولا نستطيع ان نضيف اليه ، فقط نؤكد ان النظرية السوسيولوجية هى التى وبذلك صاغت نظرية علم الاجتماع تكاملا بنائيا وظيفيا فى بنائها الذاتى .

ثالثا : ابعاد التصور الوظيفى عند أميل دوركيم :

فى اطار ما يلى سوف نعرض لمجموعة القضايا . تشكل جوهر التصور

الوظيفى عند أميل دوركيم وهو ما يشكل الجانب العينى لنظريته . وبرغم أن دوركيم لم يصغ هذه القضايا بالشكل الذى نقدمها به الاأننا أستنباطها من خلال تحليلنا لتراثه النظرى . هذه القضايا نفرد لها الصفحات التالية

(أ) قضية الضمير الجمعى كمرادف للبناء الاجتماعى :

يعنى تيماشيف حينما يؤكد ان جوهر منهج دوركيم يجب أن يوصف بأنه نزعة سوسيولوجية واقعية.لانه منح الجماعة واقعا اجتماعيا مطلقا بدلا من الفرد (تيماشيف ، مرجع سابق ص١٧٥)فالجماعة أو الضمير أو الوجود الجمعى هو الكيان الذى يستحق الاهتمام اذا اخترنا المدخل السوسيولوجى للدراسة ، فما هو الضمير الجمعى اذن . ذلك الذى يضع خط المفارقة بين الدراسة السوسيولوجية وغيرها ، انه يضم أولا مجموعة الحقائق والظواهر تختلف كل المخالفة عن مثيلاتها فى النفس الفردية ، فهى أساسا من نتاج اجتماع البشر بارهاصاتهم الفردية ، حيث تصبح هذه الحقائق أو الظواهر مجموعة من الادراكات الجانبية الفردية المختلفة ، كل ادراك له جوانب الصحة والخطأ الا انها فى قلب التجمع تتجمع وتتراكم وتصبح بعضها بعضا ويخرج الناتج واقعا أو حقيقة اسمى من مكوناتها ، قد تحمل اسهام كل منها . لكنها أسمى من كل منها وليست أيا منها (De Grange, P. 210) .

ان اختلافه عن مكوناته يمثل اختلاف الماء مثلا عن مكوناته الاساسية التى هى الايدروجين والاكسجين فى كل الصفات (الخشاب ص ٥٩٢ ، ٥٩٣) ذلك لان هناك عنصرا ثالثا هو الامتزاج والتفاعل بينهما وهو العنصر الذى لا يرد الى اى منهما وان كان يبدأ فاعليته من تواجدهما .

ونتيجة لذلك فان الضمير أو الوجود الجمعى غالبا ما يتجاوز فى قدرته واتساع نطاقه جمع الضمائر الفردية المكونة له ، انه أيضا لايحتوى على العوارض أو الاحداث المحلية ، بل يتخطى كل ذلك ويظل دائما فوق الادراك الفردى والمؤقت ، انه عادة ما يضم السمات أو الخصائص الدائمة فى الاشياء ولما كان أسمى وأكبر من الفرد ، فهو يرى أبعد من الفرد ، ان هذا الضمير يضم كل الواقع بداخله . وبذلك فهو يطرح القوالب التى يجب أن تتشكل

على اساسها وهو يستخرج هذه القوالب من داخل ذاته ولا يصنعها لغرضها المؤقت أو تأتيه من الخارج ، أنه لايفعل الا ان يعى انها بداخله . (دوركيم ، ١٩٦١ ، ص ٣٨) وبذلك فان دوركيم يجعل من الفرد فى سلوكه وفعله وأساليبه فى اتيان هذا الفعل ، وحتى نموذج شخصيته نتيجة من صنع الضمير الجمعى الذى هو الواقع الموضوعى الذى يضمه الى جانب المكـــونات المجتمعيـــة الاخـــرى .

ويطرح نيقولا تيماشيف مراحل تكون الضمير الجمعى وعلاقته بمكوناته ، فيؤكد ان الضمير الجمعى فى المرحلة الفكرية الاولى لدوركيم وبخاصة فى كتاب تقسيم العمل كان يتكون من التصورات والعواطف الشائعة بين الافـــراد الذين يكونون غالبية المجتمع . ومن ثم فهو ناتج عن التماثل بينهم . بينما هوفى كتابه قواعد المنهج الاجتماعى ، يؤكد أن الضمير الجمعى بظواهره العديدة يمارس ضغطا على الافراد ، بحيث تكون نتيجة هذا الضغط الذى يمارسه الضمير الجمعى على كل منهم توليد نوع من التفاعل العقلى والعاطفى بين الافراد . (تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ١٨٣) والحق انى لا ارى فى هذه القضية مرحلية نضج تصـــور دوركيم للضمير الجمعى بقدر ما نرى فيهـــا تصورا لمراحل تشكل الضمير الجمعى ، اذ يظهر تفحص هذا الكيان الجمعى بعد تشكله أنه تتوفر له صفتان هامتان ، الاولى انه سابق وخارج عليهـــم بمعنى انه موجود قبلهم وله خصائصه الكلية الخارجة وليست المستنبطة من داخل الذوات الفردية ، أنه يحمل قوالب تتشكل فيها الذوات الفردية ، الاان هذه القوالب خارجة عن هذه الذوات . ولان هذه القوة خارجة على الفرد وتمده بـــكافة الاســـاليب والوســـائل التى تمـــكنه مـــن قيـــادة التفاعل الاجتمـــاعى ، فانهـــا لابد وان تكون مزودة بقوة القهر والالـــزام على اتباعها (De-Grange, Op, cit, P, 109) وقد لا يشعر الافراد بأن هذا القهر والالزام مقيـــد لحريتهـــم ذلك لان الوجود الجمعى قد يشكل طبيعتهم الاجتماعية وفقا لقوالبه وطبيعة انماط سلوكه . ومن ثم فهم منشئون منذ البداية على توافق أو تطابق أساسى معه . لكن تحت ظروف معينة ـــ على سبيل المثال التطبيع الاجتماعى غير الملائم او الكفء ـــ قد ينتهك بعض الافراد اى من هذه القوالب وهنا يظهر القهر صريحا ، اذ يتسلح الضمير الجمعى بميكانيزمات عقابيـــة

تكون وظيفتها الاساسية هى صياغة او دعم التطبيع الاجتماعى لهذا الشخص المنتهك لقواعده (أحمد الخشاب ، مرجع سابق . ص ٦٠٣) . وعلى ذلك يؤكد دوركيم كثيرا ان الجريمة لاتؤدى وظيفتها كاملة الا اذا اكتملت بتوقيع العقاب على ارتكابها . هذا العقاب الذى يهدف اساسا الى تقوية الجانب الاجتماعى فى نفوسنا .

فاذا حاولنا الدخول فى التكوين الداخلى للضمير الجمعى ، لوجدناه يضم عديدا من العناصر التى تكون وظيفتها الاساسية هى الحفاظ على بناء الجماعة التى هى فى ذات الوقت حفاظ على الضمير الجمعى . ومن جماع آراء عديدة نرى ان العنصر المعيارى يشغل قمة الضمير الجمعى سواء فى نموذج مجتمع التضامن الآلى او العضوى . هذا العنصر المعيارى يتمثل فى القيم المجتمعية المشتركة ؛ تلك التى تشكل العنصر الـ (Parsons, 1960, P, 138) للنسق او البناء كما يسميه البنائيون المحدثون أو الضمير الجمعى كما يؤكد عليه اميل دوركيم . ويدعم هذا القول طرح نيقولا تيماشيف فى مناقشته لازدواجية تصور دوركيم للمجتمع ، ان الضمير الجمعى يتكون من المثاليات الاجتماعية ؛ تلك التى تصوغ وجوده ، وتمنحه واقعا موضوعيا . ومع ان هذه المثل ليست الا انعكاسات عن تفاعلات تجرى فى الواقع ، الا انها تنفصل عن فردياتها وتنتقل من المستوى السيكلوجى الى المستوى السوسيولوجى ، حيث نجد فى هذه المرحلة ان كافة نظم المجتمع ـ كالدين والاخلاق والاقتصاد ـ تلك التى يعتبرها دوركيم انساقا اساسيةهىفىجوهرها انساق قيمومثاليات (تيماشيف . مرجع سابق ص ص ، ١٨٤ ـ ١٨٥) وفى مجتمع التضامن الآلى قد يشكل الدين بشقيه اساس هذا العنصر المعيارى ـ أما فى مجتمع الاتحاد العضوى ؛ فنجد نطاقا قيميا يضم القيم الاقتصادية والسياسية والتعاقدية أو ما يمكن ان نسميه القيم الدنيوية .

وتعد الظواهر الاجتماعية هى المكون الآخر للضمير الجمعى ، اذ يرجع دوركيم ظواهر الدين (أحمد الخشاب . مرجع سابق . ص ٦٠٥) ، واللغة (Don-Martindale. op., cit., p, 14) وتقسيم العمل (Durkheim. op., cit.. p. 831) والحرية الفردية ، والانتحار ، والجريمة الى اساسها الاجتماعى المنبثق من الضمير الجمعى اساسا . ذلك لانها تؤدى دورا اساسيافىكيانالجماعة

الواقعى . فهى اما ان تكون ظواهر مدعمة لقوة الجماعةوسطوتهافىنفوس الافراد كالدين ، واما انها تخدم كم التفاعلات ومن ثم زيادة الترابط كاللغة . او هىتعمل على صياغةالاتحاد كتقسيم العمل.أو انها تؤدى دورا تطويريا أو تاكيديا كالانتحار والجريمة . يبقى بعد ذلك ضرورة أن نؤكد ان جماع هذه الظواهر وان كان له جانبه الفردى . الا انه يعبر عن مقتضيات اساسية طرحها الضمير الجمعى .

هذا الى جانب اننا نجد فى الضمير الجمعى عديدا من الوسائل والميكانيزمات التى تعد وظيفتها الاساسية ربط جزئيات النسق بكليته وتمثل هذه الجزئيات شخصيات الافراد اساسا ، ويحافظ الضمير على الافراد فى حالة ارتباط دائم به . فهو اولا يطرح العنصر المعيارى المتمثل فى نسق القيم الذى يشارك فيه كافة الاعضاء ، ثم هو من خلال عملية التطبيع الاجتماعى ينشئهم علىالخضوع لهذه القيم ، فاذا ما حدث انتهاك لاى من هذه القيم او الحدود ، فان هناك ميكانيزمات علاجية كثيرة يصلح بها ما قد فسد (Parsons, 1960, P, 146) وتعـد الاحتفالات الدينية والطقوسية من الميكانيزمات المؤكدة لوحدة الجماعة ذلك لانها تذكى الشعور بالوحدة الجمعية للكل الاجتماعى (أحمد الخشاب . مرجع سابق . ص ؛ ٥٨٥) .

لكن ما هى علاقة الضمير الجمعى بمكوناته ، سواء كانت تلكالمكونات هى الافراد باعتبارهم اشخاص ، او وحدات او انساق او ظواهر . الحقيقة ان لهذا الضمير الجمعى حاجات لا بد وان تشبع حتى يتمكن بناء المجتمع من الاستمرار ، بل اننا نجد ان عالما كالبرت بيرس يصل الى حد القول بان الحاجات الفردية التى قد نلاحظها فى السلوك الظاهرى للافراد ، انما هى فى اساسها حاجات اجتماعية (Pierce, Op, cit, PP, 160 - 161) ، انها حاجات طرحها الضمير الجمعى وعلى الوحدات الاصغر أو المتضمنة انجازها . وبانجاز هذه الحاجات تحقق قوة الضمير الجمعى تلك القوة التى تصمد أمام التغيرات الهائلة التى قد يتعرض لها واقع المجتمع دون ان تنال منه .

وحينئذ ، قد يواجهنا السؤال الذى يشكل عنوان هذه الوحدة . هل الضمير الجمعىيعنىالبناء الاجتماعى،الحقيقة انالضمير عند دوركيموالبناء الاجتماعى عند الوظيفيين فيما بعد ، مثلا كيانا موضوعيا مستقلا له وجود

واقعى منشىء ، الا انه عند اميل دوركيم مازالت له الصفة المثاليـــة ، بحيث انه قد ينحرف عن التطابق قليلا عن التصور الذى صاغه البنائيون فيما بعد. الا انه انحراف هامشى لا جوهرى . ومع التسليم بأن الضمير الجمعى عند دوركيم هو البناء الاجتماعى ، هذا البناء الذى نجد اظهارا له فى المجتمع الذى يعيشه الانسان . له خصائص اساسية شكلت ـــ ابتداء من سبنسر ودوركيم ـــ خصائص التصور البنائى الوظيفى فى علم الاجتماع . هذه الخصائص ، هى الادراك الكلى للمجتمع على انه نسق متكامل من الاعضاء او هو نسق متكامل من الحاجات والوظائف . وان هذا النسق يبحث دائما عن التوازن فاذا ما حققه استقر على حالته . وان التغير حالة متدرجة وفقا لاحتياجات النسق لتحقيق حالات التلاؤم الداخلى والخارجى .

(ب) التكامل البنائى : هو الحالة المثلى للوجود البنائى السوى :

تكمن جذور هذه الخاصية فى التصور العضوى للفكر التطورى كمـــا قد اوضحنا فى الفصل الاول . هذا التصور ، الذى تمت صياغته بصورة كاملة فى المماثلة العضوية على يد هربرت سبنسر كوسيلة منهجية لاثبات قضية التماثل بين المجتمع والكائن العضوى البيولوجى ونجد جذورها أيضا فى الاشكال الصورية التى تجلت فى اعمال زيمل وتونيس عن المجتمع العـــام والمجتمع المحلى . وتتحقق خاصية التكامل فى التصور العضوى فى أن الكل يتركب فى مجموعه من الاجزاء التى تبحث دائما عن صيغة مشتركة لتحقيق حالة من التكامل والاكتفاء الذاتى فيما بينها . مع اختلاف بين كافة اصحاب التصورات العضوية فى ترتيب الاولوية بين الكل والاجزاء او بين الاجزاء داخل اطار هـــذا الكل .

ولقد استعار دوركيم التصور العضوى ، لكنه لم يأخذه برمته . بـــل جرده من بعض الخصائص التى توحى بمضمون بيولوجى ، ثم لاعمها بمضمون اجتماعـــى جـــديـــد (Rex, Op, cit, P, 49) ومن هنـــا وجدنا عـــديدا من التصورات النسقيةلعديد منالاشكالالاجتماعية.ذلك التصور النسقى الذى يركز اساسا على ضرورة الادراك الكلى لتحديد اسس التكامل الرأسى والافقى داخل النســـق .

وباستعراض افكار اميل دوركيم فيما يتعلق بذلك تواجهنا اربعة نماذج يلعب التكامل دورا اساسيا فى صياغتها . اول هذه النماذج هو ذلك التكامل البدائى الذى يسميه أميل دوركيم مجتمع الاتحاد أو التضامن الآلى (Smelser, Op, cit, P, 219) . ويتحقق التكامل فى هذا النسق عن طريق الخضوع الكامل لمجموعة القيم والعواطف والمعايير المشتركة تلك التى تكمن فى جذور مجتمع التضامن الالى (Parsons. 1960. P, 126) ولقد سمى بالتضامن الآلى ليس لانه قد نشأ بواسطة الوسائل الميكانيكية او الصناعية ، ولكن لان التماسك الذى يسوده ، من نوع التماسك الذى يسود المادة العضوية فهى متماسكة لانها متماثلة (Durkheim. 1966. P, 130) ومن هنا فان درجة التكامل فى هذا البناء درجة ضعيفة للغاية . اذ كما يؤكد هربرت سبنسر انه كلما كانت العلاقة ضعيفة كلما كانت اقل مقاومة أمام أى انتهاك ، ومما يدل على ضعف هذا التكامل ان الفرد قد يترك الجماعة فى قبائل الكاليموكس اذا كانت سلطة الزعيم قاهرة ، وقد يترك الفرد الجماعة فى قبائل الابسيون حتى بدون أن يعلم أحدا بهجرته (Ibid, PP, 148 - 149) ولعل هذا الضعف فى تكامل نموذج التضامن الآلى ناتج عن انه لا تسوده الا نوع من العلاقة البنائية المباشرة التى تربط الافراد مباشرة بالجماعة بدون اى وسيط (Ibid, P, 149) . تلك العلاقة الرأسية التى تكون القاعدة فيها هى اظهار أو تجلى للقمة . اما العلاقات الافقية والتى تربط بين الاجزاء فى حالة من الاستقلال والتبادل الوظيفى فهى تغيب كلية بغياب التباين الوظيفى عن هذا البناء — الا ان هذا لا يعنى غياب كافة عوامل صياغة التكامل عن هذا النسق ، حيث يتوفر العديد منها ، أولها ان العواطف والعقائد المشتركة تكون من القوة بحيث أن أى فعل انتهاكى انما يقابل برد فعل عاطفى صارم ومنتقم ضد شخص المذنب (Smelser, Op, cit, P, 249) وحينئذ فان العقاب يعكس القيم المجتمعية التى تسود هذا المجتمع البدائى . هذه القيم المستوعبة بواسطة كافة الافراد نظرا للتماثل أو التشابه الاساسى بينهم . ويشكل كبار السن وكذا التجمعات القرابية عوامل مساعدة لصياغة التماثل والامتثال فى هذا النوع من التضامن وذلك نظرا لانها تدعم الحفاظ على بقاء مجموعة القيم والعواطف المشتركة ، فكبار السن هم حلقة الاتصال بين الماضى والحاضر وهم

يحملون قيم الماضى التى يجب على جيل الحاضر أن يمتثل لها لانه يشعر بالدونية نحو جيل الاباء والاجداد انعكاسا لعلاقة كبر السن بصغر السن التى تلعب دورا هاما فى هذه المجتمعات (Durkheim, 1966, P, 296) . اما المجتمعات القرابية فهى عادة ما تحيط بالفرد وتساعد على اشباع كافة حاجاته داخل نطاقها (Ibid, P, 292) بل انها ايضا تساعد على تشكيل نسقه القيمى بأن تجعله يتمثل قيمها ، ومن هنا فهى تخلق أساسا قيميا مشتركا بين اعضائها . ومن ثم تساعد على التماثل والامتثال لهذا الاساس القيمى المشترك .

فاذا ما اعتبرنا ان وجود مجموعة من القيم والعواطف الجمعية المشتركة تلك التى تشكل الضمير الجمعى لهذا المجتمع ، وكذا بتضامن العوامل الفرعية كالسلطة التقليدية لكبار السن والتجمعات القرابية عوامل ايجابية فى صياغة التكامل ، فان هناك عوامل اخرى سلبية ، يقف منها المجتمع موقفا خاصا وينطبق هذا على رد الجماعة الانتقامى على الفعل الاجرامى الذى ينتهك سكون واتفاق المجتمع . وهو يكتسب صفته الاجرامية هذه من انتهاكه لهذا الاتفاق وليس لطبيعة كامنة فيه (Zeitlin, Op, cit, P, 243) ويتميز رد الفعل هذا بأنه قهرى انتقامى . ذلك لان الفعل الاجرامى الذى وقع ليس اجراما فى حق شخص كما قد يبدو ، ولكنه اجرام فى حق الضمير الجمعى المشترك . ومن هنا فان رد الفعل العقابى هذا يؤكد قوة الجماعة من ناحية ، ويشكل اعادة تنشئة اجتماعية ضمنية لباقى افراد الجماعة من ناحية اخرى .

ويمثل الانتحار عاملا سلبيا آخر فى خلق نوع من التكامل الاجتماعى والحقيقة أن اهتمام دوركيم بالتكامل واكتمال تصوره له تكمن أساسا فى قدرته العبقرية على الربط بين أنماط معينة من الانتحار وبين أشكال بنائية محددة . فهو بينما يميز بين ثلاث أنماط أساسية فى الانتحار وهى الانتحار الايثارى ، والأنانى ، والانومى ، نجد أنه يعطى الشكل الاول — الايثارى — دورا هاما فى صياغة التكامل البنائى بينما يجعل فى الشكلين الاخرين مجرد دالات على وجود خلل فى تنظيم البناء القائم وسوف نناقش ذلك فى صفحات قادمة .

اما الدور التكاملى للانتحار الايثارى ، فيكمن فى ان البناء الاجتماعى لهذه

المجتمعات البسيطة يحتوى على درجة عالية من التكامل الناتج عن الاشتراك فى كيان من العواطف والقيم المشتركة . هذا التكامل يوفر عند اعضاء المجتمع احساسا بالتضحية فى سبيل أهداف عامة ، وتكون الايثارية دلالة على هذه الدرجة العليا من التكامل ، ويسمى الانتحار الذى ينتج من التضحية فى سبيل هذه الاهداف العامة بالانتحار الايثارى ويقسمه دوركيم الى ثلاثة انواع . فهو انتحار ايثارى ملزم ، ذلك اذا توفرت شروط معينه كأن يكون الشخص مسنا مستهلكا غير منتج للجماعة ، أو ان يقترف الشخص جريمة فى حق الجماعة ومن درجة تمثله لقيمها وعدم رضائه عن فعله هذا فانه يواجه الانتحار ، اما النوع الثانى فهو الانتحار الايثارى الاختيارى ، الذى يرتكبه الشخص وفاء لفكرة معينة ، مثل انتحار العبيد وفاء لاسيادهم او انتحار الزوجة وفاء لزوجها ، أما النوع الثالث فهو الانتحار الايثارى الحاد acute ، وهو ذلك الانتحار الذى يشعر امامه الفرد ان الجماعة فى خطر وعلى ذلك وجبت التضحية من أجل الحفاظ عليها او ان الخطر قد وقع فعلا ولم تعد للحياة قيمة تستحق ممارستها (Durkheim, 1951, Chap, 4) وهذا الانتحار الى جانب وجوده فى المجتمعات البدائية يوجد ايضا بالجيش ، اذ يماثل بناؤه على نحو ما بناء المجتمع البدائى من حيث درجة الاستسلام والانصياع للمثل والاوامر العليا . ولعل أوضح مثال يمكن ان نطرحه بهذا الصدد انتحار الطيارين اليابانيين فى الحرب العالمية الثانية (أحمد الخشاب . ص ٥٩٦)

ويمثل المجتمع الصناعى الشكل البنائى الثانى الذى عالج فيه دوركيم خاصية التكامل البنائى ، وهو ما عرف عنده تحت اسم مجتمع التضامن العضوى . والحقيقة لقد كانت صياغة التكامل فى هذا البناء موضع جدل وحوار بين مختلف الاطر النظرية التى صاغها كل من سان سيمون وكونت وماركس ودوركيم (Zeitlin, Op, cit, P, 243) ، وكما تلعب مجموعة القيم والعواطف المشتركة العنصر الجوهرى فى بناء مجتمع التضامن الآلى يلعب تقسيم العمل أساسا يرتكز عليه بناء مجتمع التضامن العضوى ، ويبدأ ميلاد هذا البناء فى قلب بناء التضامن الآلى ، حيثيتزايد عدد السكان ، وتتزايد كثافتهم السكانية والاجتماعية ، ويقل التماثل لان

الكتلة المتزايدة تتعرض لظروف خارجية مختلفة ويكون على الجماعة أن تبحث عن صيغة جديدة تحافظ بها على تكاملها ، وتتفادى بها أيضا صراعاتها الداخلية المتولدة . ومن هنا كان تقسيم العمل عند دوركيم اساسا جديدا للتعايش الانسانى فى وضـــع حضارى جديد . وصياغة التكامل أكثر ملاءمة للشـــكل البنائى الجديد .

وفى مجتمع تقسيم العمل يهتم اساسا بالدور والوظيفة لا بالشخص أو الفرد ، ذلك لان الشخص او الفـــرد يتنافى اولا والمـــدخل السوســـيولوجى للدراسة ، وثانيا لان هذا الشخص قد يحتل عدة ادوار وقد يؤدى عدة وظائف (Parsons, 1960, P, 125) ومـــن هنا فأن وحـــدة ما تتخصص فى آداء دور معين أو وظيفة محددة ، هى بذلك تعطى نتاجا او اسهاما للبناء الاجتماعى ككل فى جانب معين من حاجاته وهى فى مقابل ذلك تعتمد عليه اعتماد رئيسيا فى اشباع كافة حاجاتها الاخرى . وبذلك يصبح العضو فى علاقة متساندة مع الاعضاء الاخرى من خلال المجتمع ، لانه يعطى ويأخذ المقابل وفى ذات الوقت فانه يمارس حالة من الاستقلال والتميز الوظيفى عن الوحدات الاخرى التى قد يدخل معها أحيانا فى حالة من الصراع والمساومة ، نظرا لان كل وحـــدة تحاول ان تحصل على اشباع كامل لها عن طريق دفع أقل تكلفة ممكنـــة (Durkheim, 1966, P, 203) هذا عن العلاقات الافقية التى تصوغ التساند بين الوحدات البنائية ، تلك العلاقات التى تغيب عن المجتمع البدائى ، فهى فى هذا الشكل البنائى ـــ شكل التضامن العضوى ـــ تمثل العلاقات الوظيفية الرئيسية فى النسق ، ذلك لان المجتمع ككل بنائى يطـــرح حاجات لابد من تحقيق اشباع لها والا توقف البناء عن الاستمرار ويقابل ذلك اداء وظيفى من الاجزاء او الاعضاء البنائية التى على الطرف الآخر فى هذه العـــلاقة . والتى عليها ان تعمل على اشباع هذه الحاجات البنائية ، يؤكد ذلك قـــول ليزلى ساكلير أن الافراد ليسوا الا أدوات لأداء وظائف تشبع حاجات بنائية (Skliar, Op, cit, P, 44) أو كما يؤكد البرت بيرس ان دوركيم يستخدم كلمة الحاجة لكى يحدد خاصية او طابع الكلية ، اما الوظيفة فهى تستخدم فقط حينما نعالج جانبا أو جزءا من المجتمع كتقسيم العمـــل أو الديـــن (Pierce, cit, P, 155) ، وبذلك تتوافـــر لهذا البناء عديد من العـــلاقات

والتفاعلات المكثفة التى تزيد من درجة التكامل التى تفوق الى حد كبير ذلك التكامل الكائن فى البناء البدائى .

وتتجلى هذه الدرجة العليا من التكامل ، فى ان الوحدة أو العضو لا يستطيع أن يحيا بعيدا عن الكل ، وكذلك لا يستطيع هذا الكل ان يحقق وجودا سويا بدون الاشباع الوظيفى الذى يتحقق له من خلال آدائية هذا العضو أو الجزء. فهو يقول مثلا تصديقا على قول هربرت سبنسر ان الاجزاء المختلفة للمجتمع بسبب أنها تنجز وظائف مختلفة لا يمكن ولا تستطيع أن تنفصل بسهولة. فصناعة النسيج فى ليفربول سوف تتوقف اذا ما فصلنا هذه المقاطعة عن مقاطعات الامداد بالوقود ، والمادة الخام المجاورة . كذا ستضار هذه المقاطعات الاخيرة ايضا (Durkheim, 1966, PP, 149 - 150) ,

ومن منطلق أن كافة الوظائف التى تؤديها كافة الاعضاء البنائية هامة لصياغة التكامل البنائى ، نجد ان البناء الاجتماعى فى سعيه المستمر نحو تحقيق أعلى درجات التكامل قد يمارس تغييرا لاحد أعضائه البنائية اذا ضعفت كفايته الوظيفية . فمثلا اذا ما احتل العدو عاصمة بلد ما ، نجد انه بعد فترة وجيزة تقوم مدينة اخرى تلقائيا لتؤدى نفس وظيفة العاصمة السابقة رغم انها لم تكن مهيأة لذلك من قبل (Ibid, P, 329) وكذا بحثا عن التخصص والكفاءة فى الآداء الوظيفى قد يقسم البناء آداء وظيفة معينة على عدد من الاعضاء الجديدة ، كأن تقوم من النظم والانساق الاقتصادية والتعليمية والتربوية والصحية ، بوظائف كانت تشكل وظيفة لعضو واحد هى الاسرة او الوحدة القرابية فى المجتمع البدائى .

ولكى يصبح المجتمع متكاملا فى وسط متغير . فلابد ان تتحقق له درجة من المرونة البنائية ، تلك المرونة التى بها يخلق البناء اعضاء جديدة لآداء وظائف تشبع حاجات جديدة انبثقت من خلال التطور البنائى وذلك لتحقيق درجة عليا من التكيف . وقد يستبدل بعض هذه الاعضاء بأخرى . فمثلا الحاجة الى تحسين زيادة الانتاج لتحقيق الوفرة تدعو الى قيام التخصص لانجاز ذلك (Ibid, P, 274) وأحيانا ما يقوم البناء الاجتماعى باستبدال عضو بآخر لأداء وظيفة معينة فمثلا انجاز الزواج كان قديما وظيفة

التجمع القرابـــى والدينى ، فأصبح الآن وظيفة السلطة المدنية الدينية أو العائـــلية (Ibid, P, 207) وأوضح مـــــا يـــكون الاستبدال البنائى ذلك الذى تم باحلال تقسيم العمل كأساس بنائى يؤدى وظيفة تحقيق الوحـــدة والاتحاد الاجتماعى ، مكان مجموعة القيم والعواطف المشتركة التى كانت تحقق هذه الوظيفة فى البناء البدائى ، مع ما صاحب هذا الاساس من تغيرات بنائية بغية تحقيق قدر ملائم من التكيف والمواءمة البنائية بين أعضاء أو أجزاء البناء الاجتماعى ، فأصبحت الشخصية أكثر حراكية بعدان كانت استقرارية للغاية ، وظهرت الحرية الفردية ، بل واعلى من شأن الفردية وحلت الروابط المهنية ورابطة القومية ، محل الروابط القرابية القديمة (Ibid, P, 190) ويتحرر الفرد من كل سلطة تقاليدية فانه يصبح اكثر استقلالا . ويشـــــكل الى حـــــد كبير عواطفـــه وافكـــاره الخاصـــــة (Ibid, PP, 400 - 401)

ولقد تجلى هذا التصور الكلى المتكامل للبناء الاجتماعى فى محاولة دوركيم استخدام البناء الاجتماعى اطار مرجعيا لتفسير سبب ووظيفة بعض الظواهر (دوركيم ، ١٩٦١ ، ص ١٥٨ — ١٦٠) فنجده فى كتبـــه الثلاثة تقسيـــم العمل فى المجتمع ، وقواعد المنهج الاجتماعى ، والانتحار ، يؤكد ان لـــكل ظاهرة وظيفة فهو يؤكد ان وظيفة تقسيم العمل صياغة الاتحاد والتـــكامل الاجتماعى . ووظيفة الحكومة صياغة حالة من التآزر بين مختلف الاعضاء البنائية عن طريق ضروب الضبط الايجابى والسلبى (Durkheim, 1966, PP, 205 - 206) ، الا انـــه كثيرا مـــا كان يستخـــدم كلمـــة وظيفة بمعنى نتيجة فانتحار الانومى نتيجة لخلل فى التنظيم فى بنـــاء التضامن العضوى ، والانتحار الانانى هو نتيجة لازدياد المطامع والاهداف الفردية بدرجة تفوق مستوى الاهداف والمطامع المتفق عليها فى الجماعة . ويكمن فى عرض دوركيم لوجود الظاهـــرة بين سببها وادائها لوظيفتها قصور منهجى خطير من وجهـــة النظر الوظيفية حيث انه يؤكد كثيرا وبخاصة فى كتابه تقسيم العمل فى المجتمع ان النتيجـــة لا تستحيـــل الى سبب لظاهـــرة أخـــــرى (Ibd, P, 260) وفى هذا تناقض جوهرى مع قول آخر له ان الظواهر الاجتماعية مفسرة لذاتها ، اذن فكل الظواهر اسباب لبعضها وهى نتائج ووظائف أيضا لبعضها . وهو فى ذلك يتفق على خلاف قوله الاول — مع التصور الوظيفى للعلاقات بـــين

الظواهر تلك العلاقة التى تكون دائما ذات مسار حلزونى نحو الارتقاء والتكامل بل ان هذا يتفق ايضا مع ديناميكية تخلق الضمير الجمعى الذى هو الجوهر البنائى الذى يشكل الظواهر الاجتماعية تجليات جمعية له .

ويطرح اميل دوركيم شكلين بنائيين آخرين يمثلان نطاقا من التفكير اليوتوبى فى فكره ويعد مجتمع المؤسسات هو أول هذه الاشكال حيث بطرحه منطلقا من اعترافه بأن تقسيم العمل المعاصر قد تنتابه حالات شاذة أو حالة توصف بأنها الانومى أو معتة التنظيم ، فهو يعترف بأن سبب الحالات الشاذة او الانومى هو انهيار الروابط الاجتماعية التى كانت تحكم مسار تحقيق الفعل الاجتماعى، وذلك نتيجة لانهيار الروابط والبناء العائلى أو القرابى . وغياب أى تنظيم يحل محلهـــا (Durkheim, 1951, PP, 377 - 378) وقبل ان يرسم الخطوط الرئيسية فى شكله البنائى المقترح، يؤكد ذلك أنه بغياب الروابط الاجتماعية القائمة على التجمعات العائلية والقرابية ظهر امامنا بديلان غير ملائمين . الاول قيام الدولة كعنصر تنظيمى يضم الوظائف أو الاعضاء ، مع بعضها وينظم العلاقات بينها . الا انه يرد ان الدولة كجهاز لا تصلح ، لانها جهاز معقد مصوغ من أجل تحقيق بعض الوظائف العامة ، دون ان تعطى القدرة على التغلغل فى دقائق الحياة الاجتماعية لفهمها او السيطرة عليها ، فاذا لم تكن الدولة ملائمة للقيام بهذه الوظيفة فأن البديل هو غيابها ، وحياة المجتمع بصورة غير مترابطة وغير منظمة . وأمام هذين البديلين اللذين يعنيان أما أن نحيا فى نوع مـن التنظيم التسلطى الذى يكون ضعيفا نظرا لصرامته المتزايدة . واما ان نعيش فى غياب حالة تفتقد كل تنظيم وكل سلطة ، تلك الحالة التى تهدد دائما بولادة النـزعـة العسـكرية (Ibid, P, 380) وأمـام فشـل هذين البديلـين يطرح دوركيم شكل المجتمع ذا البناء المؤسسى . بمعنى ان يقـوم تقسـيم للعمل بين المؤسسات حيث تؤدى كل منها وظيفة معينة . وبان تمارس المؤسسة المهنية ـ التى تضم العمال الى جانب اصحاب الاعمـال ـ نفس الدور الذى كانت تؤديه الجماعة القرابية القديمة . ذلك لان المؤسسة يتوفر لها الحضور الكامل لكونها تشكل عنصرا اساسيا فى البناء الاجتماعى القائم ثم انها ايضا تشكل ظاهرة اجتماعية لانها تمثل تجل لاحدى المتطلبات البنائية للضمير الجمعى ، ثم انها تسيطر على الجزء الاكبـر من حيـاة الشـخص

فلهـــا تأثـير على حيـاة العامـل داخل نطاقها وحتى (Ibid, P, 379) داخل نطاقه الاسرى . وبعد أن يعرض لصورة البناء المؤسسى على أنه يمثل كل بنائى يحتوى على مؤسسات ذات وظائف متباينة ومتخصصة بحيث تنتفى بينها كافة مظاهر الصراع نجده يعرض لوظيفة هذه المؤسسات على انهـا تعمل على ربط الافراد عضويا بها ، وهى تعمل على الغاء حالة عدم التنظيم المعاصرة . انها يجب ان تقرر بعدل ومساواة نصيب كل جزء من اجـزاء الكل وانها يجب ان تقف فوق اعضائها ، تفرض عليهم سلطانها وحاجاتها ، وتطلب منهم تضحيات وعطاءات وانجازات معينة . انها تطلب من الأقوياء ان يعتدلوا فى استخدام قوتهم ، وتطلب من الضعفاء الا يكثروا من التمرد والاجتماع . انها تدعوهم معا لنوع من الاداء المتبادل الذى يعـود عليهـم وعلى المصلحة العامة بالنفع ، انها تعمل جاهدة لالغاء كافة التناقضـات التى قد تظهر فى هذا البناء برسم الحدود التى يجب ان يلتزم بها الجميـع (Ibid, P, 383) , **وينتقـل دوركيـم الى شـكل بنائى يوتوبـى ثـان** هو المجتمع العالمى ، فيؤكد أن مجتمع الآخاء الانسانى كان دائما حلما بشريا يعوق تحققه قيام اختلافات عقلية بين كافة الانماط الاجتماعية الموجودة . ذلك العالم الذى يهدف الى الغاء الحروب والصراعات بين الدول . ثم يؤكد ان واقع أوربا الآن يبدو أنه يتجه نحو هذا الهدف . ان ذلك ممكن التحقيق اذا ما قام مجتمع أكثر اتساعا يضم هذه المجتمعات المحلية بداخله وكأنهـا اعضاء فى بناء اجتماعى واحد . تؤدى كل منها وظيفة متباينة متخصصة داخل اطار متكامل من تقسيم العل الاجتماعى . وبذلك تصبح الدول وكأنهـا **مؤسسات داخل مجتمع واحد . ان المجتمعات العظيمة أو الكبيرة تقوم أو** تتحقق من خلال تقسيم العمل ، الذى يحقق حالة من التوازن الـذى تنتفى فيها كل مظاهر التوتر والصراع والحرب . وينتهى اميل دوركيم بتقرير قضية عامة مضمونها أن تحقق مجتمع الاخـاء البشرى يتناسب وتقـدم تقسيـم العمل (Durkheim, 1966, P, 406) ,

ومن عرضنا لهذه الانماط البنائية الاربعة عند أميـل دوركيم نطـرح ملاحظة هامة ، وهى غياب العمليات الصراعيةوالتغيريةداخل هذه الانساق

فالمجتمع الآلى مجتمع متماثل لان أشخاصه يشتركون فى نظام مشترك من القيم والعواطف الجمعية . ومجتمع تقسيم العمل أو الاتحاد العضوى الذى من وظيفته الاساسية تصريف الصراع الذى قد يظهر فى النسق الاول حينما تضخمت الكثافة وتزايد السكان فهو يراه على أنه متوازن أيضا . أما الشكل الثالث وهو المجتمع المؤسسى حيث تتخصص مؤسساته حتى لاتتصارع حول أهداف متمناه لكل منها . ويقوم تقسيم العمل بدور أساسى فى تحقيق التوازن بينها ، وفى هذا الشكل الاخير ، أعنى فى مجتمع الاخاء الانسانى يعمل دوركيم أيضا على الغاء الصراعات والحروب بين الدول . لكننا قد نتساءل عن معنى اهمال دوركيم لعمليات رئيسية كهذه فى النسق . هل كان اهماله لها نتيجة لتصوره لدورها ، هذا التصور الذى يؤكد على أن وجودها يعنى أن البناء القائم اما شاذ او تسوده حالة من الانومى وعدم التنظيم . يعنى أيضا أن دوركيم كما يؤكد تالكوت بارسونز كان مهتما اساسا بصياغة نظرية تعالج تكامل الانساق الاجتماعية لا تغيرها .

(ج) التوازن حالة تحكم اتجاهية النسق :

بالنسبة لهذا النطاق التصورى فى النظرية السوسيولوجية ، حقق أميل دوركيم — بحسه السوسيولوجى — نظرية منظمة ومنسقة لانبالغ اذا قلنا أنها قد ترددت فى كل ما قيل بعدها عن هذا النطاق النظرى بل قد لا نبالغ اذا قلنا انها تجاوزته . ولقد يؤيد وجهة نظرنا ما يعلنه تالكوت بارسونز فى سلسلة أخيرة من المقالات حول امكانية أن تبدأ النظرية السوسيولوجية فى معالجة التغير الاجتماعى بعد ان عالجت قضايا النسق المتوازن . اذ نجد ان أميل دوركيم وهو يعالج النسق الاجتماعى سواء فى مجتمع التضامن الآلى أو العضوى . نجده يعالج قضايا توازن وتغير وتفاعل وصراع النسق ، مؤكدا ضرورة تدخل هذه العمليات فى صياغة بناء النسق فبينما يرى أن نسقه فى حركة دائمة بميكانيزمات عديدة يحاول أن يحقق التوازن ، فاذا ماتحقق طرأ من الظروف الداخلية أو الخارجية ما ينتهك هذا التوازن ويطلب من النسق مرورا بعمليات التغير والصراع أنه يتجه نحو حالة التوازن والتكامل — فهو لم يقف مثل بعض من الرواد الوظيفيين الآتين بعده من أمثال برنسلاو

مالينوفسكى ، راد كليف براون ، عند حـد التأكيد والمعالجة للتكامل والتوازن مع القاء ضوء قليل على عمليات التغير . وفى نفس الوقت فهو لم يقف كماركس الذى لا يرى فى المجتمع الا حالة حركة دائمة من خلال صراع يدخـل فيه البشر الى ان يفضوا كل تناقض أو امكانية تناقض فى نموذج حياتهم الواقعية . حيث كان ذا رؤية متكاملة ؛ فهو لم يكن وضعيا كما قـد قيل أو مثاليا أو ماديا بل قد كان كل ذلك ، ولم يكن كل ذلك أيضا . وبذلك صاغ اول نظرية منسقة ومنظمة قادرة على معالجة كافة عمليات ومتغايرات الواقع .

ويوضح دوركيم حالة التوازن بأنها الحالة التى يستجيب فيهـا النسق بأسلوب ملائم لكافة القوى التى تمارس تاثيرا عليه (Ibid, P, 343) ثم فى موضع آخر يؤكد ان أى طاقة او بناء له حدود معينة يكون عندها متوازنا اذا لم يتجاوزها . ويكتسب النسق هذه الصفة لانه يكون عند هذه الحـدود متكيفا وشروط الوجود المحيط ، ولا تجرى فيه أى تغيرات ما لم يتبع التغـير اى شىء آخر ذو علاقة بـه (Ibid, P, 268) ,

فاذا ما كان يفترض أن التوازن هـو التلاؤم بين الفعل ورد الفعـل الذى يجب أن يسود حالة التفاعل بين النسق وبين كافة الظروف الخارجية أو الداخلية . فانه يطرح أمامنا توضيحا لهذه الحالة مثالا يؤكد أنه حينمـا يحدث انتهاك لاحدى قواعد المجتمع الآلى . هنا يكون قد طرأ موقف جديد . يتطلب من النسق رد فعل تلاؤمى يرد به المنتهك الى صوابه ويرد على الجماعة وحدتها بعد اصلاح ما انتهك من قواعدهـا بفرض عقاب انتقامى على الجانى سواء كان انسانا أو حيوانا أو جمـادا . فهو حتى يفرض عقابا على ادوات الجريمة . وتكون الوظيفة الاساسية لهذا العقاب هو ارجاع حالة التوازن من جديد بتجاوز الانتهاك عن طريق اجراء ما يقوى الضمير الجمعى المتمثل فى مجموعة القـيم وقواعد السلوك . وعن طريق تعميق روح الجمعية داخل بعض الافراد الذين ضعفت لديهم هذه الروح باستخدام بعض الوسائـل العقابيـة . (Ibid, PP, 85 - 86) ,

ويؤكد دوركيم ان حالة التوازن هذه ليست حالة ساكنة . ولكنهـا

حالة دائمة التلاؤم ، ويتضح ذلك مثلا من تمييز النسق بين الانتهاكات ذات العقوبات القوية وتلك ذات ردود الفعل البسيطة دليل على التوازن بين قدر ونوع الانتهاك وقدر وقوع العقاب (Ibid, PP, 101 - 102) ثم يؤكد أن هناك نوعا آخر من التلاؤم يمارسه النسق من اجل التوازن . فاذا كانت هناك عاطفة جمعية قوية واخرى ضعيفة ، فان لكل منها عقابها الملائم لكن اذا حدث ان تغلبت العاطفة القوية على الفعل المنتهك لها أو العكس ، وبقيت فى الساحة العاطفة الضعيفة ، وحدها ، فان انتهاكها يصبح انتهاكا لعاطفة قوية ، ومن ثم يصبح عقابها شديدا . وذلك نظرا لانها تكون قد احتلت مركز الاهتمام بالنسبة للضمير الجمعى (اميل دوركيم ، ١٩٦١، ص ص ١١٧—١٢٣) وهذا يطرح تصورا اساسيا موجزه أن هناك نوعا من التكامل بين الجريمة والعقاب وذلك لانبثاقها من مصدر مشترك هو الضمير الجمعى . فهو يهدف بهما الى تقوية الوجود الجمعى المشترك ، وهو يؤكد اننا نحن الذين ننتقم لارضاء بعض العواطف التى انتهكت بداخلنا ويكون منا من انتهك هذه العواطف ، وبذلك نمارس نوعا من الخداع الضرورى لانفسنا ، (Durkheim, 1966, PP, 100 - 101)

ويعد انتقال أو تحول بناء المجتمع من حالة البناء الآلى ، الى البناء العضوى من أفضل صور الملاءمة التى يصوغها النسق لبعض عناصره التى قد طرأ عليها — بفضل ظروف ما — ما حطم حالة التلاؤم السابقة ومن ثم أفقد النسق حالة التوازن الاساسية . اذ بينما تعيش عناصر النسق البدائى فى حالة منسقة ومتساوقة بنائيا ووظيفيا نجد ان احد العناصر قد يتجاوز حجمه الاساسى وبذلك يفقد الاتساق اساسه ومن ثم ينهار التوازن . ويؤكد دوركيم على حجم وكثافة السكان كعنصر اساسى ينتهك التوازن حينما يتزايد ويدفع النسق بالتالى الى البحث عن حالة جديدة متوازنة ، وتتزايد الكثافة السكانية بأحد عاملين ، العامل الاول هو اتحاد الجماعات فى جماعات اكبر (Ibid, P, 257) اذ يؤدى ذلك الى نوع من التكثف أو التجمع المكانى . ويكمن العامل الثانى فى الزيادة التى تعزى الى نسبة المواليد (Ibid, P, 258) ، وهى زيادة تخلية من خلال الكائن العضوى ذاته ، وتتولد الكثافة الاجتماعية عن الكثافة السكانية ، ذلك لان

الاولى تعد نتاجا لكم التفاعلات التى تجرى بهذا المجتمع ؛ ويزيد منها تقدم سبل المواصلات وتخلق مراكز حضارية فى المجتمع كالمدينة — ومع تشابه الموارد والوظائف . وتكثف العـــدد المستفيد أو المؤدى لها ، لا بد ان تقوم حالة من التنافس بين الافراد وتزداد كلما تزايدت الكثافة السكانية للمجتمع . ويقوم التخصص كنوع من التنظيم الاجتماعى الذى يخفف من ضغط السكان على المصـــادر الموجـــودة (Smelser, Op, cit, P, 250) . وكلما ازدادت الكثافة ، أطرد هذا التفاعل، ومن ثم يدفع الى التخصص، وبذلك يظهر تقسيم العمل كتنظيم اجتماعى ليس من هدفه زيادة الانتاج ، ولكن تقليل المنافسة (Harris, Op, cit, P, 476) . ويصبح تقسيم العمـــل متغـــيرا وسيطا بـــين متغير مستقلّ هو الكثافة السكانية ومتغير تابع هو شـــكلَ التنظيم الاجتماعى الذى هو مجتمع التضامن العضوى (Skliar, Op, cit, P, 73) ويصبح هـــذا الترتيب الجديد لمواقف وعلاقات النسق تحقيقا لنوع من التوازن البنائى .

وفى اثناء انتقال النسق من حالة التجمع الآلى الى العضوى تنتابـــه حالة من سوء التنظيم حيث يمارس فيها النسق حالة من التّبديل والتعديل فى تكويناته طلبا للتوازن . وتكون هذه الفترة فترة تنظيم مرضى حيث تنشر فيها حالة من اللامعيارية ، وحالة من افتقاد اى اطار مرجعى للحكم على الامور . وينسب دوركيم الى هذه الحالة ظاهرة انتجار الأنومى . حيث تتميز طبيعة هذا النوع من الانتحار بافتقاد نشاط الانسان للتنظيم وما ينتج عن ذلك من صنوف المعانـــــاة (Ibid, P, 75) . وهو يؤكد أن حالة سوء التنظيم هذه التى قد تنتاب البناء الاجتماعى ليست موروثة فطريا فى بناء المجتمع الصناعى ولكنها نتيجة لانهيار معايير وقواعد سلوك بنائى قديم وان القواعـــد ومعايير البناء الجديد — بناء التضامن العضوى — لم تترسخ بعد ، فهى حالة وقتية تنتهى بانتهاء عملية الانتقال من نموذج بنائى الى نموذج بنائى آخر .

فاذا ما انتقلنا الى مجتمع التضامن العضوى لوجدناه يمارس حالة من التفاعل يسعى من خلالها الى تحقيق التوازن أيضا . اذ من أجل أن يسود التخصص فى حرفة معينة بين مجموعة من المؤسسات فانهـــــا تمر بعملية التنافس وربما الصراع . تحل بهما التناقضات الداخلية من أجـــل ان يحل التوازن من جديد . وحسب حجم كل مؤسسة فان لها حدودا معينة لا يمكن

أن تتجاوزها ، فاذا ما عرفت كل مؤسسة حدودها فستكون هناك حالة من التلاؤم . اما اذا تجاوزت احداها حدودها ، أو لم تصل أخرى الى حدودها الملائمة ، فان هذا الوضع يخلق لاحداها نوعا من الدونية بالنسبة للأخرى ، ويكون عليها اما أن تتوقف أو تتحول الى تخصص جديد . فاذا ما استقر الوضع بحدوث التوازن ، فان الصراع ينتقل الى موضع جديد يلغى فيه عدم التباين ويولده وكلما ينتقل من مكان الى آخر ، حتى يولد حالة عالية التباين فى بناء النسق . وكلما كثر أعضاء المجتمع ، كلما كانت امكانية قيام صراع حاد قائمة ، حيث يتولد عن هذا الصراع تخصص أو تقسيم للعمل أكثر كمالا (Durkheim, 1966, P, 269) ,

(د) قضية التغير البنائى :

الحقيقة لا أجد مفارقة بين أن نقول أن النسق يخضع لعملية التوازن المتحرك وبين أن نقول ان النسق يمارس نوعا من التغير التدريجى أو التلاؤمى . فكلا الاصطلاحين يعبر عن حقيقة اساسية ، وهى أن النسق لايمكن أن يحيا حالة استقطابية حيث يكون طرفاها أما توازنا ساكنا واما تغيرا ثوريا فوريا كاملا . ذلك لان الواقع الاجتماعى لا يمكن ان يحيا هذه الحالات المتطرفة التى قد تكون ولادة لتصور عقلى مكتبى .

وفى معالجتنا لقضية تغير النسق عند دوركيم نجد انه بقدر ما أكد مرارا ، صراحة وضمنا أن النسق يبحث ابدا عن التوازن ، نجده لا يغفل ابدا أن النسق متغير على الدوام أيضا . حتى ان البرت بيرس يؤكد أن الاختلاف الجذرى بين أميل دوركيم والوظيفيين المحدثين يمكن فى اهتمامه الأساسى بالتغير الاجتماعى (Pierce, Op, cit, P, 159) . حيث قد خضع وظيفيون من امثال برنسلاو مالينوفسكى لفشل كامل فى معالجة قضية تغير الانساق بالرغم من أنه جاء تاريخيا بعدهم .

وتوضح الدراسة المتعمقة لقضية التغير الاجتماعى عند اميل دوركيم أن قضاياه بخصوص هذا النطاق التصورى انبثقت كنتاج لحوار منقح لكل من النزعة التطورية التى كانت احدى جوانب الوضعية الكونية ، وأيضا مع تصور التغير الجدلى الانبثاقى .

وكما يؤكد الفن جولدنر انه قد تم استبدال الدراسة المقارنة عند كل من اميل دوركيم وماكس فيبر بدلا من النزعة التطورية الاجتماعية التى ميزت علم الاجتماع فى فترته الكلاسيكية (Gouldner, Op, cit, P, 117) اذ نجد أن دوركيم قد تنصل من التصور المستقبلى للوضعية الكونتية كرفض ضمنى لا مكانية تخيل مجتمع المستقبل (*) ؛ مستندا الى أن علم الاجتماع لم يصل بعد الى النضج الذى يمكنه من صياغة هذا التصور ؛ ثم نجده يتجه الى تنقيح الوضعية من ارتباطها بالماضى وخوفها منه ؛ وكان بذلك يطرح هدف أن تكون دراسة علم الاجتماع دراسة متزامنة . وبدلا من ذلك صاغ ثنائية مجتمعية ، حيث جمع كل الماضى التاريخى فى شكل بنائى واحد هو مجتمع التضامن الآلى مضمنا فيه المجتمعات القبلية والاقطاعية والبدائية ، أما الشق الثانى للثنائية ، فقد كان مجتمع التضامن العضوى الذى كان يشير الى كافة المجتمعات الصناعية المعاصرة ثم اتخذ من الاول اطارا مرجعيا للثانى (Ibid, P, 119,) . ومايز بين الخصائص والسمات ، ومهد بذلك لنشأة الدراسات المقارنة كوريث شرعى للنزعة التطورية فى علم الاجتماع . فاذا ما اتفقنا مع الفن جولدنر من انه فى هذا النطاق يكمن الامتياز العقلى لاميل دوركيم على اوجست كونت ، فاننا نؤكد أن هذا لم يكن من ابتكاره العقلى ، وانما ساعدت عليه جماع الدراسات الانثروبولوجية التى تناولت الشعوب المستعمرة والبدائية فى كل من أفريقيا وآسيا فى عصره ».

وبعد أن يستقر دوركيم على هذين النموذجين البنائيين نجده يتجه الى معالجة قضية تولد النموذج العضوى من النموذج الآلى ؛ أو انتقال الثانى الى الاول . وانا لنلاحظ فى هذه المعالجة سمة هيجلية جدلية . فهو يؤكد أنه كلما زادت الكثافة الاجتماعية الى ما بعد حجم معين فانها لابد وان تغير الشكل البنائى للتنظيم . وكما يؤكد رادكليف براون نقلا عن جورج زيمل

(*) هذا بالرغم من ان أميل دوركيم قد قام بصياغة نموذجين بنائيين يوتوبيين يتمنى تحقيقها فى المستقبل ؛ وهما نموذج البناء المؤسسى ، ونموذج المجتمع العالمى .

(بأن كل زيادة كمية للمجتمع تنتج تعديلا كيفيا ...) . فالبناء الملائم للجماعة يتطلب كما معينا من العضوية (عدد الاعضاء) . الا ان هذا البناء يفقد اهميته أو ملاءمته اذا زادت العضوية عن حد معين
(Radcliffe - Brown, 1958, PP, 185 - 186)

فاذا ما اتفقنا على وجود هذه السمة الجدلية لوجدنا سمة أخرى ، وهو ايمان دوركيم بالتطور الانبثاقى الجدلى ، اعنى تولد فكرة من داخل أخرى بالاضافة الى بعض الظروف الاخرى بحيث ينتج ذلك شكلا جديدا مخالفا لشكل الفكرة الاولى . وهكذا نجد ان اميل دوركيم ينظر الى تاريخ التطور على انه الوهن أو الضعف التدريجى لمجتمع التضامن الآلى والتقدم والانبثاق التدريجى لمجتمع التضامن العضوى (Smelser, Op, cit, P, 249)

فهو يؤكد أنه قانون تاريخى ، ذلك الذى على اساسه نجد أن مجتمع التضامن الآلى ، الذى كان يقف فى البداية وحده ، أو هكذا تقريبا ، يفقد تدريجيا أساسه ومكانته ليصبح نموذج التضامن العضوى تدريجيا هو النموذج السائد
(Durkheim, 1966, P, 177)

وبناء على ذلك يسند دوركيم الى الكثافة السكانية ، ومن ثم الكثافة الاجتماعية السبب فى الزيادة الكمية التى ادت الى تغير كيفى . والحقيقة لقد كان الاهتمام بالسكان ، وبالكثافة الاجتماعية الناتجة عن تفاعلهم موضع اهتمام من الفكر الاجتماعى الوضعى ابتداء من منتسكيو الذى منح اهمية كبرى لعدد السكان فى تشكيل النظام الاجتماعى (ريمون آرون . ١٩٦٦ . ص ٥٤) . ومن ثم استعار دوركيم هذا الدور للسكان . ذلك الدور الذى عالجناه فى معالجة قضايا توازن النسق ، حيث ان هذا العامل هو الذى ادى الى انهيار التوازن ، ومن ثم البحث عن توازن جديد بتغيير ـــ ترتيب العناصر البنائية ، ومن ثم اعادة ترتيبها فى شكل بنائى جديد .

فاذا كان الضغط السكانى هو المتغير الاول ، فأن هناك متغيرات أخرى وسيطة ، ومتدخلة وظيفتها التعجيل أو المساعدة فى اتمام عملية التغير ، ويورد دوركيم من هذه العوامل ، قيام المدن ، وهى وان كانت نتاج لتغيرات

بنائية كهجرة السكان وتمركزهم فى مناطق معينة واحترافهم حرفا جديدة ، فانها بدورها تصبح بيئة ملائمة لقيام التغير الاجتماعى حيث يضعف الضبط الاجتماعى ، وسلطة التقاليد ، وضعف الضمير الجمعى الآلى (Durkheim, 1966, PP, 258 - 296) . وهو ينظر أيضا الى سبل المواصلات على انها نتاج ووسائل للتغير الاجتماعى ، حيث ان دورها الاساسى يكمن فى الغاء المسافات والفراغات التى تفصل بين مختلف الاقسام الاجتماعية ، ومن ثم تزيد من الكثافة الاجتماعية . وكلما تقدمت المواصلات كلما كان النموذج البنائى اكثر تقدما وقابلية للتغير (Ibid. P. 260) ثم يورد عوامل كثيرة نلاحظها فى ثنايا عمله الرائع (تقسيم العمل فى المجتمع) فيعطى العناصر الفكرية — ورغم أن هذا موقف مثالى — دورا هاما فى التغير حيث انها تجنب الانسان مخاطر الالم بتوضيح التجارب الانسانية للتغير (Ibid, PP, 273 - 370) ثم يعطى أيضا التجديدات والابتكارات المهنية دورا آخر (Ibid, P, 303)

والى جانب التغيرات السابقة وعواملها ، نجد ان المجتمع كما يصوره دوركيم فى حالة ممارسة مستمرة لعملية التغير التدريجى التلاؤمى ، فهو قد يغير من حجم عضو بنائى معين ، كتلك التغيرات التى طرات على حجم الاسرة ، فبعد ان كانت الوحدة القرابية هى القبيلة أو العائلة الممتدة نجد الاسرة الزوجية أو النووية ، ثم ينزع منها معظم وظائفها كالتعليم ، والدين ، والحماية ولا يترك لها الا وظيفة الانجاب ، ويخلق أعضاء جديدة لممارسة هذه الوظائف ، كالكنيسة ، والمؤسسات التعليمية ، ومؤسسات الدفاع والحرب . وفى كلتا العمليتين فهو يجرى تغيرات بنائية ووظيفية ، بل ان المجتمع قد تتخلق له بفعل التطور حاجات جديدة ، وذلك يتطلب أعضاء ووظائف لاشباعها (Ibid, PP, 17, 210, 289, 329) . والحقيقة فاننا يمكننا أن نؤكد أن هذه التغيرات التلاؤمية تنبثق أساسا من تصور دوركيم العضوى الكلى المتكامل للمجتمع .

فاذا اردنا ان نحدد مكانة دوركيم بين هؤلاء الذين يؤكدون ان التغير

والصراع هو الحالة الدائمة للنسق وان حالة التوازن والاستقرار هى حالات استثنائية ، وهؤلاء الذين يؤكدون أن النسق حالته الدائمة هى التوازن ، والاستقرار أما التغير فهو حالة استثنائية نتيجة لبعض الظروف الطارئة . (Dahrendor. R. 1968, P. 218) لوجدنا أنه يحتل مكانة وسطى بين هذين التيارين فهو يرى النسق ذو توازن متحرك يلائم نفسه دائما وفقا للظروف الخارجية، والداخلية المتغيرة وهو ينظر الى حالات التغير المتطرفة أو الجذرية على أنها مرضية . لانها تورثنا حالة من الانومى ، حيث يهتز التنظيم وتغيب قواعد القديم ومعاييره وقيمه ، دون أن يكتمل ظهور معايير وقيم الجديد ، ويحيا الاشخاص فى مناشطهم الاجتماعية مفتقدين للتنظيم (Durkheim, 1966, PP, 408 - 409) وهو يطرح علاجا لهذه الحالة بأن علينا ان نعمل على اكتمال البناء الجديد .

وثمة قضية هامة واخيرة ، مضمونها من اين تنطلق شرارة التغير ؟ هل هى نتيجة لاسباب خارجية كما يراها هربرت سبنسر السابق عليه ، أو برنسلا ومالينوفسكى اللاحق له ، ان رؤية دوركيم بشأن هذه القضية تختلف أيضا . فالتغير من الداخل أساسا ، سببه كما أوردنا ضغط السكان وكثافتهم العددية والاجتماعية تلك التى تغير من شكل التنظيم ، وهنا يجب أن نتساءل هل رؤيا دوركيم للتغير رؤيا بنائية وظيفية ؟ الحقيقة ان هذه قضية معضلة ، لكنا سنوافق على انها رؤيا بنائية وظيفية الى ان نوضح السبب فى معالجتنا القادمة لقضايا النسق المتغير .

ونتفق اخيرا مع تالكوت بارسونز أنه سواء كانت لدى دوركيم نظرية عن التغير أم لا ، فالحقيقة المؤكدة ان قضية التغير ليست جزءا منفصلا عن تنظيره السوسيولوجى (Pierce, Op, cit, P, 165) **وان على البنائيين الوظيفيين من بعده أن يطوروا نظرية عن التغير الاجتماعى تعد امتدادا لتفكير دوركيم ، بدلا من تركيزهم الجامد على جانب التوازن فى النسق كما فعل برنسلاو مالينوفسكى وراد كليف براون * .**

(*) نلاحظ ان اهتمام البنائيين الوظيفيين بالتغير الاجتماعى قد تجلى فى تالكوت =

(هـ) السلوك الانحرافى وقضية تكامل الانساق :

نبسط الامور كثيرا اذا قلنا مع البعض ان دراسة الانتحار كانت حوارا ضمنيا مع أصحاب المذهب الفردى النفعى الذين يربطون تحقق السعادة بتقدم الانسان فاذا ما تعمقنا لوجدنا ان قضية تكامل الانساق وتوازنها هى الشاغل الاول لاميل دوركيم على نحو ما وضحنا سابقا ؛ وعلى ذلك فهو يتخذ من تكامل الانساق متغيرا مستقلا ترتبط به متغيرات تابعة هى الظواهر الانحرافية ــ (الانتحار أو الجريمة) . وهو يميز بين مستويات وأشكال للتكامل ، ترتبط بها انماط معينة من السلوك المنحرف . ويعد المستوى الاول هو ذلك المستوى الذى تتوفر له درجة عليا من التكامل حيث يشترك الاعضاء فى مجموعة من العواطف والقيم المشتركة تلك التى تشكل جوهر الضمير الجمعى . حيث يوفر هذا الاشتراك احساسا وقابلية للتضحية فى سبيل الآخرين أو ما يعرف بالشعور الغيرى ويتوفر هذا المستوى فى شكل مجتمع التضامن الآلى . اما المستوى الثانى فهو أقل تكاملا من الاول حيث لا تتطابق قيم نسق الشخصية وقيم النسق الاجتماعى ، لكى يظل دائما مناخ الثانى هو المهيىء لظهور قيم الاول حيث الفردية وقيمها ، ويتوفر هذا المستوى فى مجتمع التضامن العضوى . أما المستوى الثالث ، فهو افتقاد التكامل والتنظيم كلية ، حيث يعيش النسق فى حالة من الفوضى يجد الشخص نفسه فيها غريبا على كل معايير النسق ، حيث لا يكون لها أية جذور فى شخصيته ، ويكمن الاختلاف الرئيسى بين هذا المستوى والمستوى السابق فى أن حالة التطابق بين نسق الشخصية والنسق الاجتماعى فى التكامل العضوى ليس كاملا،أما فى مستوى التكامل الثالث ، فانه لا توجد صلة كلية بين كلا النسقين من حيث معايير توجيه الفعل فيهما .

وتلاؤما وهذه المستويات والانواع المختلفة من التكامل يؤكد دوركيم

فى صياغة نظرية عن التغير الاجتماعى ، حيث توجد معالجة لذلك فى كتاب = بارسونز الذى تجاوز أخيرا ــ كما يؤكد ــ قضايا النسق المتوازن . ويبدا social system, PP, 480 - 535 وايضا فى نموذج بارسونز التحليلى لدراسة التغير .

على ضرورة احتواء كلّ منهما على ظواهر أو عناصر انحرافية . وفى سبيل البرهنة على ضرورة وجودها يطرح دوركيم فكرة تصورية هامة . وهى فكرة النمط المتوسط ، وهو عبارة عن شخصية ذهنية مجردة تتشكل عن طريق الجمع بين أشد الصفات عمومية وانتشارا فى أفراد النوع (دوركيم . ١٩٦١، ص ١٠٤) . على أنه من الضرورى التأكيد على أن هذا النمط لا يتطابق أبدا وصفات الذات الفردية ذلك لانه يضم خصائص مشتركة بين البشر ، هذا الى جانب التأكيد على أن خصائص هذا النمط متغيرة أبدا ، وهى غالبا ما تحتوى على خصائص وصفات ربما لا نجدها فى الذوات الفردية (*) . فاذا ما دققنا النظر فى صفات هذا النمط لوجدنا تواجد مثل هذه الظواهر الانحرافية. ذلك يستوجب منا ضرورة الحكم بأهمية وضرورة وجودها نظرا لانه لابد أن لها دورا فى بناء النسق .

فاذا ما سلمنا بضرورة الظواهر الانحرافية ، نجد أن دوركيم يؤكد دائما أنها ترتبط بالبناء الاجتماعى أساسا وليس الافراد ، وأن كونها تظهر من خلالهم فان ذلك لانها تتخذهم أدوات للتعبير عن نفسها ، اذ نجد فى كلّ جماعة ميلا طبيعيا لارتكاب الانتحار ، الذى قد يظل ثابتا بالرغم من تغير أفراد بناء الجماعة . (Durkheim, 1951, P, 307) ,

ومن تأكيد دوركيم على ارتباط الظاهرة الانحرافية بالبناء الاجتماعى ، يتضح انتفاء أى رابطة بين هذه الظواهر ـ ككل الظواهر الاجتماعية ـ وبين أى من الاسباب غير الاجتماعية . فالجريمة أو الانتحار لا يرجعان لاسبابه نفسية (Ibid, PP, 82 - 103) أو أسباب أخلاقية فلسفية (Ibid, PP, 22 - 30) أو أسباب جغرافية كونية * ، أو أسباب بيلوجية فردية (Ibid, PP, 83 - 93)

(*) يختلف النمط المتوسط عند أميل دوركيم ، عنه عند ادولف كتبلية ، اذ تكون عند الاخير من خصائص الفرد المتوسط ، أى الفرد الممثل للافراد والمأخوذ من بينهم ، أما عند الاول فهو نمط يضم كافة الخصائص الموجودة لدى أفراد النوع ، ولذلك فهو أكثر شمولا واستيعاب من أى من أفراده . أميل دوركيم الانتحارى ٣٠٧ . ويختلف أيضا عن النموذج المثالى عند ماكس فيبر ، حيث يتكون النموذج المثالى عند الاخير من أكثر لسمات أو العناصر جوهرية في لواقعة موضع الدراسة .

وانما ترتبط أساسا بابناء الاجتماعى أو بمعنى أصح بمظاهر أو وحدات هذا البناء . فللانتحار مثلا علاقة بالجريمة وهى ظاهرة انحرافية أخرى ، فاذا ما اتخذنا القتل كممثل للجريمة لانها تحمل بعض خصائص الانتحار ذلك لان كليهما قتل لذات ما ، وحاولنا تحديد العلاقة بينهما لوجدنا رؤيتين ، رؤيا لا نستطيع أن نتجاهلها فى هذا الاعتبار وهى رؤية علماء الاجرام الايطاليين من أمثال لومبروزو ، وفيرى ، وموريسيلى ، حيث يؤكدون أن الظاهرة الانحرافية تنبثق من الافراد الذين لديهم الاستعداد الطبيعى لذلك ، ومن هنا فان الانتحار والجريمة تياران يتغذيان من مصدر واحد . ويسيران فى اتجاه واحد وبنفس القوة . وهم فى ذلك يعكسون رأيا ضمنيا فى أن هؤلاء الأفراد غير مهيئين لصراع الحياة ، انهم نفايات بشرية غير قادرة على أداء دور مفيد للمجتمع (Ibid, P, 340) ويعبر دوركيم عن الرؤية الثانية ، وهى الرؤية السوسيولوجية ، أو البنائية الوظيفية حينما يؤكد ان الانتحار والقتل مظهران يعبران عن جوهر أساسى فى البناء ، وان الالتجاء الى الانتحار أو القتل وافناء الذات ، انما يعتمد أساسا على قوة أو ضعف الضمير الجمعى (Ibid, P, 341) والاتفاق العام ذاته حينما نجد الانتحار منتشرا . فان ذلك يشكل مناعة ضد القتل ، والعكس صحيح (Ibid, P, 351) وبذلك يؤكد دوركيم على رؤية ضمنية ، وهى لزومية الظاهرة الانحرافية دون النظر الى الشكل الذى تتخذه توطئة لاعطائها دورا وظيفيا فى بناء المجتمع .

أما الظاهرة الثانية فهى الحرب ، وهى أيضا ذات علاقة بالانتحار (Ibid, P, 350) اذ تقتل بالحرب نفس النسبة التى كانت ستقتل بالانتحار حينما تدخل الجماعة فى صراع مع عدو آخر ، حيث يؤكد ذلك على ضرورة الوحدة المتكاملة للجماعة حتى تكسب الصراع ، وأيضا لان الحرب فى حد ذاتها صراع وانحراف ، وما يخسره المجتمع فيها انما هو تعويض لما يخسره عن طريق الظواهر الانحرافية الاخرى .

وتتمثل قدرة دوركيم على التحليل حينما يقدم مظاهر التفاعل الاجتماعى على انها وليست المظاهر الجغرافية والمكانية هى التى لها علاقة بالانتحار ، فالحرارة أو البرودة أو التضاريس الوعرة أو السهلة أو هذا الشهر أو ذلك من العام ليس له أية علاقة بالانتحار الا بقدر ما يتيح امكانية تفاعل اجتماعى .

فالتفاعل الاجتماعى هو حالة أو عملية بنائية لها صلة كبيرة بوقائع الانتحار مثلا ، ويتضح ذلك فى المجتمعات التى لاتشارك المرأة فيها فى الحياة الاجتماعية. اذ نجد أن نسب الانتحار عند النساء أقل منها عند الرجال نظرا لانهن اقل تضمنا فى الحياة الجمعية . واذا ما ارتفع الانتحار وفقا لتقلبات موسمية من شهر حتى يونيو ليبدأ فى الانخفاض من جديد . فان ذلك لان هذه الفترة من السنة ذات نشـــاط وتفاعـــل اجتماعى كبـــير (Ibid, P, 299) وترتفع نسبة الانتحار فى المراكز الحضرية عنها فى المجتمعات الريفية ؛ ذلك نظـــرا لكثافة هذه المراكز السكانية والاجتماعية . والدليل على ذلك أن المجتمـــع البدائى وفقا لرؤيا دوركيم يشهد نوعا واحدا من الانتحار (الايثارى) . أما المجتمع الحضرى أو الصناعى فيشهد نوعين هما أنتحار الانومى والانتحـــار الانانى . والى جانب ذلك فهناك ظواهر اجتماعية كثيرة يرتبط بها الانتحار ، كالتعليم ، وبعض ظواهر التقلبات الاقتصادية ، بل وظاهرة الاسرة والطلاق . ولقد قصد دوركيم من توضيحه لارتباط الانتحار بالظواهر الاجتماعية الاخرى ، أن يؤكد قضية أساسية ، هى ان الانتحار ظاهرة لها علاقاتها بالظواهر الاخرى وأن الظاهرة الانحرافية ككل الظواهر الاجتماعية الاخرى ضرورية ولازمة للبناء الاجتماعى .

ولتوضيح هذه القضية الاخيرة ، نتناول مظهرين للظاهرة الانحرافية هما الجريمة ، والانتحار . ومما لاشك فيه أن الخاصية الاولى للفعل الاجرامى تتمثل فى كونه غير موافق عليه بواسطة اعضاء المجتمع (Durkheim, 1966, PP, 73 - 80) . بل أن أرفنج زايتلن يؤكـــد وفقـــا لدوركيم أن الفعـــــل يكون اجراميا لانه يصطدم والضمير الجمعى أو الاتفاق العام وليس أنـــه يصـــدم بالاتفاق العـــام لانه اجـــرامى (Zeitlin, Op, cit, PP, 243 - 244) وهو يضمن بذلك ان التحريم هو علاقة بنائية بين المجتمع وبين الفعل ، ومن هنا لاءمت النسبية ـــ وهى وحـــدة معرفية سوسيولوجية ـــ بين الجريمة كظاهرة مثل كل الظواهر الاجتماعية الاخرى ، وبين بناء المجتمع ، وأصبحنا نجد ان الافعال ذات العقوبات القاسية فى المجتمع البدائى هى الافعال الموجهة ضد كل ما يتصل بالضمير الجمعى ، دون التركيز على الجرائم ضد الاشخاص

(Durkheim, 1966, P, 931) يقول انه حينما يعاقب المجرم في هذه المجتمعات لانه اجرم في حق آخر ، فذلك لان هذا الاخر هو تجسيد لقيم ومعايير الضمير الجمعي . فاذا كانت هذه طبيعة الفعل المجرم . فما هي علاقته البنائية اذن ؟ . يؤكد اميل دوركيم على ضرورية الجريمة — في حالتها المعتادة — كظاهرة هامة بالنسبة للبناء . فهي اتجاه منوقع في كل انماط المجتمعات ؛ لكنها تصبح معتلة حينما تزداد عن معدلها المعتاد . وتكون بذلك مؤشرا هاما لوجود خلل في بناء النسق (Durkheim, 1951, P, 17) والى جانب هذه الوظيفة الدالة للجريمة يسجل دوركيم وظائف اجتماعية أخرى . فهي تساعد أولا على تحقيق التطور الطبيعي للجوانب القانونية والاخلاقية ، ذلك لانها تمهد الطريق أمام هذا التطور بأحداث نوع من المرونة في بناء النسق وثانيا لانها قد تسهم بصورة مباشرة في اعادة تشكيل الحياة الاجتماعية لان الجريمة وفقا لما يؤكد دوركيم تمثل اطلالة من الحاضر على المستقبل . وهل لنا أن نتذكر أن سقراط كان مجرما وفقا للقانون الاثيني ومع ذلك فقد كانت جريمته ، وهو استقلاله في التفكير ، ليست مفيدة لوطنه فحسب ، بل لقد كانت مفيدة للانسانية أيضا (دوركيم . ١٩٦١ . ص ص ١٢٣ — ١٢٥) . ونظرة سريعة الى كافة الثورات البشرية ، ابتداء من الثورة اللوثرية وحتى الثورة الشيوعية في روسيا والصين وثورات البلاد النامية يتضح لنا انه اذا ما فشلت اى من هذه الثورات ، فان القائمين بها سوف يصبحون مجرمين من وجهة نظر قانون المجتمع ، ومع ذلك ، فلقد حقق نجاحها تغييرات اجتماعية وانسانية هائلة .

وهنا نجد أن اميل دوركيم يقف موقفا موضوعيا حياديا أمام كافة الظواهر الاجتماعية حتى تلك الظواهر التي تعد جريمة من وجهة نظر البناء الاجتماعي القائم . وبذلك يسجل أنه الى جانب كونه باحثا يهتم بالاستقرار الاجتماعي للنسق يهتم بتغييره أيضا اذا كانت حاجة النسق الى التغير واضحة وضرورية .

أما المظهر الثاني للظاهرة الانحرافية فهي ظاهرة الانتحار ، والحقيقة

لقد نالت منه هذه الظاهرة اهتماما كبيرا فأفرد لها دراسة كاملة ، ولقد أشرنا الى تفنيد دوركيم لأية رؤيه ترجع الظواهر الاجتماعية والانحرافية خاصة الى اسباب او عوامل غير اجتماعية ، ثم تأكيده التالى أن هناك نوعين من التكامل الآلى ، والعضوى ، ثم حالة سوء التنظيم كشكل او درجة من اشكال او درجات التكامل ، ويتضح ذلك فى معالجته لظاهرة الانتحار فهو يربط كل نمط من انماط الانتحار بنمط بنائى معين . فالانتحار الايثارى يرتبط ببناء المجتمع الآلى ، والانتحار الانانى يرتبط ببناء المجتمع العضوى ، أما انتحار الانومى فهو حالة من حالات سوء التنظيم سواء وجدت نتيجة لوجود توترات معينة فى بناء المجتمع العضوى او نتيجة عملية الانتقال من شكل وعلاقات بناء التضامن الآلى الى العضوى(Martindale, Op, cit, PP, 88 - 89)

وأول انماط الانتحار هو الانتحار الايثارى ، ويرتكبه الفرد فداء وتضحية لروح الجماعة أو تكاملها ، فهو تعبير عن درجة عالية من التكامل بين الفرد والجماعة يجعله يلفظ كل ما هو أنانى ، ويرتبط بكل ما هو غيرى ايثارى ويعرض لنا دوركيم ثلاثة اساليب للانتحار الايثارى ، فهو أما أن يكون انتحارا ايثاريا واجبا ، وهو مرتبط بشروط اذا توفرت الزمت الشخص بالاقدام على قتل الذات كأن يجرم فى حق الجماعة مثلا ، وأما أن يكون انتحارا ايثاريا اختياريا ، يأتيه الفرد بالرغم من أنه قد لا يكون هناك عقاب اذا لم يرتكبه كالاستشهاد فى معارك حربية فداء للجماعة ، أما الاسلوب الثالث ، فهو الانتحار الايثارى الحاد ، يرتكبه الشخص اذا تحقق من انه لا فائدة من أن يظل حيا ، كأن يخرج الجيش منهزما من معركة حربية فينتحر بعض الجنود حزنا ، أو أن تقتل الزوجة نفسها فى بعض المجتمعات اذا ما توفى زوجها ، او أن يموت الرجل البدائى فداء لزعيم جماعته الذى قتل (Durkheim, 1951, Chap, 4)

ويعرض دوركيم للبناءات التى تستلزم هذا النمط من الانتحار فيؤكد انها تلك البناءات الصغيرة المتماسكة التى تتمكن من احتواء افرادها بصورة شاملة ، كالمجتمع البدائى أو مجتمع الجيش ، وذلك لان الجيش عبارة عن مجتمع مغلق تماثل اخلاقياته الصارمة اخلاقيات المجتمع البدائى ، وفى معالجته

للجيش يؤكد انه كلما كان التلاحم بين الفرد والجماعة العسكرية غالبا كلما كان أكثر قابلية للانتحار فالمتطوع أكثر قابلية من المجند ، وطالب السنة النهائية فى الكلية العسكرية أكثر قابلية للانتحار من الطالب الملتحق حديثا .

أما النوع الثانى من الانتحار فهو الانتحار الانانى ، وهو طراز يسود فى نمط التضامن العضوى ، حيث هناك تأكيد عال على الفردية ، حيث يتخذ الفرد من قيمه الخاصة ومعاييره محكات للحكم على كل فعل ، وبذلك يصبح الفرد معتمدا على نفسه اعتمادا كبيرا ، ويصبح الصواب والخطأ من الامور التى يحددها هو وفقا لما يتراءى له (أحمد الخشاب . ص ٥٩٨) ، والحقيقة فان هذا التأكيد على الفردية يستلزم الاهتمام بأهم ما فى الفرد ، وهو الفكر ، والفكر ينشطه التعليم وهو يلغى فى ذات الوقت الارتباط بالتقاليد ، ومن هنا ارتبط هذا النمط الانتحارى بدرجة فردية الانسان وأيضا بدرجة عدم انغماسه فى التفاعل الاجتماعى الذى قد يشكل اذا زاد تقليلا لفرديته ، وبذلك فان الجماعات التى تترك الحرية للافراد ليبحثوا عن غايات دنيوية تدعم فرديتهم دون أن تتدخل فى تفاصيل حياتهم تعانى درجة عالية من الانتحار كجماعة البروتستانت التى تعانى أكثر من الكاثوليك لان الاخيرة تتدخل بالتفصيل فى حرية الفرد ، ثم هى تربط الفرد بغايات أخروية وليست دنيوية دائما ، ومن ثم نجد أن التعليم فى الاولى أكثر من الثانية وبالتالى الانتحار (Durkheim, 1951, PP, 159 - 170) وكذا بالنسبة للانغماس فى التفاعل نجد أن الشخص الاعزب لانه ليس محاطا بسياج التماسك الاسرى ويسعى وراء فرديته فانه يكون أميل من المتزوج لارتكاب الانتحار ، وتشذ الجماعة اليهودية عن القاعدة السابقة . فهى جماعة الى جانب أنها تتدخل بحكم انها ديانة بدائية فى كافة تفاصيل الحياة الفردية ، الى جانب انها كجماعة اقلية ترتفع فيها درجة التماسك الاجتماعى ، وأيضا درجة التعليم للتفوق ، ومن هنا تقل نسبة الانتحار عندهم نتيجة لدرجة التماسك ، وعادة ما يعبر الانتحار الانانى عن درجة عالية من الطموح الفردى ، بدرجة يتجاوز فيها هذا الطموح القدرة الفردية ، ومن ثم يصاب الانسان بالاحساس بالعجز ذلك بالنسبة لشخص يحترم فرديته ، حينئذ يتواجد مأزق صراعى يواجه هذا الفرد ويكون

الانتحار هو المسار الوحيد الذى على الفرد أن يسلكه لكى يتخلص من هـذا الموقف الصراعى ..

أما النمط الثالث فهو انتحار الانومى . فما هو معنى الانومى ، الحقيقة انها اصطلاح يعبر عن تناقض حالة الوحدة الاجتماعية حيث تعبر الاخيرة عن حالة من التكامل الايديولوجى الجمعى (Martindale, Op, cit, PP, 88 - 89) ويضع بارسونز مفارقة هامة مضمونها ان الفرد لا يرتكب انتحـار الانومى نظرا لانه افتقد وسائل انجاز الاهداف المميزة للانتحار الأنانى ولكن لان هناك حالة من عدم التكامل بين اهدافه والتوقعات التى صيغت نظاميا فى شـكل نظم أو معايير ، وقد يسبب عدم التكامل هذا عوامل اجتماعية او ثقافية ، أو نفسـية (Parsons, 1960, P, 144) اذ يـرتكب الانسـان هذا النوع من الانتحار اذا ماتعرض لهزات مؤلمة أو مفاجئة كالغنى أو الفقر المفاجىء والمتزوجون الذين تنتهى حياتهم بالطلاق . بذلك يمكننا ان نؤكد ان حالة الانومى هى حالة معاناة فردية يشعر فيها الفرد بعدم الامان والاستقرار ، يأتى افعاله دون ان يدرى هل ستتسق مع توقعات الاخرين أم لا ، وغالبا ما يحدث ذلك ، انها حالة من اللاقاعدة ، واللامعيارية ، واللاقيمية تلك الحالة التى يجد الفرد نفسه امامها فى حالة من افتقاد الصلة أو العلاقة بين فعله والتوقعات البنائية .

الا انه أحيانا ما يخلط بعض الكتاب عن خطأ حالتى الانتحار الانانـى والانومى على انهما مظهران لحالة واحدة ، هى افتقاد التكامل فى البنـاء الاجتماعى ، هنا نستعين عليهم بوجهة نظر تالكوت بارسونز الذى يؤكد على ان الانومى هى حالة ذات علاقة بقوة الضمير الجمعى أو الاتفاق العام ، أما الانانية فهى حالة ذات علاقة بمضمون هذا الاتفاق العام ، أعنى أنها ذات علاقة بفرديات هذا الضمير وليس بكليته . واذ نرى كمـا رأى تالكـوت بارسونز نؤكد فى النهاية ان الفارق بين انتحار الانومى والانانى ان الاول هو حالة احتجاج فردى موجهة من الفرد الى البناء لتهدئته وعدم تكامل وحدتـه . أما حالة الانتحار الانانى ، فهى احتجاج بنائى اساسا موجهة الى الفـرد

الذى اعطاه المجتمع حرية فتجاور العطاء ، ان الانتحار الانانى فى مجتمع الانحاد العضوى قد يقابل الانتحار الايثارى فى مجتمع الاتحاد الميكانيكى،وهما يبذلان حفاظا على درجة معينة من التكامل البنائى ، أما الانومى فهى تعبير عن افتقاد لهذا التكامل كلية .

وأخيرا ، اذا كان للجريمة دور مهيأ أساسا للتغير ، فهل للانتحار دور ؟ الحقيقة ، لا نجد دورا ايجابيا يرد فى كافة كتابات اميل دوركيم ، لكن هل من الممكن ان يخلق البناء ظاهرة تمس احدى مكوناته الاساسية وهم الاشخاص ، ولايعطيها دوركيم وهو البنائى الوظيفى الا دورا هامشيا ؟ الحقيقة انه اعطاها دورها ، هى الحفاظ على التوازن والتكامل ، فاذا كانت الجريمة ذات دور فى تغير النسق ، فدور الانتحار يكمن أساسا فى توازن النسق ، الانتحار الايثارى يأتيه الفرد يشهد به على استقرار وتكامل وتوازن الجماعة أو هو لفظ لهؤلاء الذين يحطمون التوازن ، أما الانتحار الانانى فهو فى مناخ جديد حيث الفردية والحرية واحترام الفكر ، حيث تسود حالة التساند بين عناصر يكون عندها النسق متوازنا ، لكن اذا نسى الفرد اثناء نهمه وسعيه وراء الاهداف وتجاوز حريته ونطاق الاهداف الفردية ، فانه حفاظ على البناء يتم التخلص منه أو من ذاته ، وبذلك يظل النسق متوازنا ، أما انتحار الانومى ، فهى أشارة دائمة الى ان النسق لم يتوازن بعد ، فاذا ما توازن فانه يمارس احدى الحالات المخففة من النوعين السابقين .